١

حرب البيلوبونيز

لثوكيديديس الأثيني

بقلم :
د. على حافظ

١ ـ ثوكيديديس (٤٧١ ـ ٣٩٠ ق ٠ م)

الكاتب الذى كتب تاريخ الحرب بين أثينا واسبارطة (٤٣١ ـ ٤٠٣ ق٠م٠) وهما فى ذروة قوتهما كان قائدا من قواد الحرب ومواطنا أثينيا يعلم من أسرار السياسة ما يعلمه أمراء السياسة فى أزهى عصورها ، وتهذب بالعلم والبيان والفلسفة بما هذبت به عقول الحكماء والفلاسفة فى أعلى درجات العلم والتهذيب ٠٠ كان قائدا لأسطول الأثينيين بعد تيموستوكل وبريكليس وسوفوكليس ، وكان ندا لأنبغ رجال زمانه فى أعلى مواهبهم : كان ندا لبريكليس فى الحرب والبيان والسياسة ، وكان ندا لسوفوكليس أعظم شعراء التراجيديا فى تصوير المصير ٠٠ استقى الفلسفة والعلم من صحبة أئمة الفلسفة فى زمانه، وورث جيل أبطال ماراتون وسلامين اذ حمل مثلهم لواء الأبطال وكرامة الانسان وعزة الوطن وسعادته ، وشابهت حياته وحياة أثينا أبطال الأساطير الذين أبقت التراجيديا الأثينية ما بلوا من السعادة والشقاء ٠٠٠ لا يحدث عن نفسه شيئا ويحدث عن أثينا وطنه وآلهته والذين خلوا

من قبله من الأبطال الذين ردوا لوطنهم وآلهتهم ما آتاهم وطنهم وآلهتهم من مجد وأمسكوا عن عد محاسن أنفسهم. وقد كتب ثوكيديديس كتابه ليبقى كعمد معابد أثينا ، أى آية من العقل الأثينى فى أخلد صوره ، كآية فيدياس فى النحت وآية سقراط فى الفلسفة وآية سوفوكليس فى الشعر .

تاريخ ثوكيديديس عمل حى صاغته يد ثوكيديديس وعقله من أعماق أسرار الحياة التى تخلق من الانسان أداة تشعل الحرب وتقر السلام . ومن الناس من يكون أداة حرب أو سلام عن تجربة وعلم وبينة ، وكثير من الناس ينطلقون فى مهب كل ريح لا يتقون العاصفة التى تمزق شراعهم وتحطم ساريتهم وتغرق السفينة وأهلها ، وهؤلاء أكثر صيحة ونفيرا . ومن الناس من توقظهم شهوات الغرور يريدون أن يأتوا بما لم يأت به أحد ويطيبون نفسا بكل مغامرة ، فان أفلح عملهم بنوا مجدا بغير عماد ، وان خاب عملهم خابوا ولا يستحيون من عواقبه. وقد ألف الشعراء ورواة السير أن يصوروا مقادير الانسان فى حكمته وطمعه وحرصه وشره وخيره ، وأحب ثوكيديديس أن يصور مقادير الأمم فيما تبلو من رشاد وما تتعثر فيه من أخطاء، ويلزم كل انسان وزر أهوائه وأخطائه ، ويصور رجاله على قدر ما يلقونه من خطر المصير ، فهم يوجهون دفة أمتهم وحلفائها ويولون أمتهم دار البوار ، وتصوير المخطئين وآلامهم عبرة لمن يعتبر فى عمر الزمان .

كتب ثوكيديديس كتابه وهو شاهد يشهد سهام المنية تنشب أظفارها فى بنى وطنه ، وهو حريص عليهم يود لو يتقى السهام بنفسه . وكل حكماء زمانه يشاركونه هذا المصير فى صور أخرى من صور البيان . ومن يقرأ تاريخ ثوكيديديس يجد سر بيانه فى شعر سوفوكليس وارستوفانيس وفى حياة سقراط وموته . وتصبح أثينا معلما تعلم الحكمة بحياتها وموتها .

« قد كتب هذه الأحداث ثوكيديديس الأثينى نفسه . كتبها منذ أولها ، وكتبها متقصيا أحداثها صيفا وشتاء حتى قضى اللاسيدايمونيون وحلفاؤهم على ملك الأثينيين واحتلوا البيريه واستولوا على أسوار المدينة العالية . وقد استمرت الحرب حتى هذه النهاية سبعة وعشرين عاما . والهدنة التى حدثت وسط هذه الحرب لم تكن سلاما ، فلم يتبادل الخصمان ما اتفقوا عليه . واذا تجاوزنا عن الحرب التى وقعت فى مانتينيه وفى ابيدوروس فقد وقعت من الجانبين أخطاء كثيرة ، وحلفاء تراقيه استمروا فى حربهم ، وأهل البيوسيه لم يضعوا السلاح الا عشرة أيام . فاذا جمعنا السنوات العشر الأولى وما تبعها من هدنة — لم تكن هدنة — وكذلك ما تبع الهدنة من حرب يجد عدة السنين التى عددتها مع فارق أيام قليلة، ويجدها توافق ما تنبأت به نبوءة المعابد . فمنذ شبت هذه الحرب الى نهايتها كان الناس مجمعين على أنها ستمكث ثلاث مرات تسع سنين ، وقد عاصرت هذه الحرب من أولها الى آخرها وكنت مدركا عالما فتابعتها بكل مداركى . وقد نفيت عشرين عاما منذ قيادتى بعض أسطول الأثينيين فى امنيبوليس ، وهيأ لى هذا النفى أن أحضر الأحداث فى كلتا المدينتين وخاصة فى أسبارطة

(**الكتاب الخامس XXVI**)

فما قدر هذه الحرب فى حياة الانسانية حتى

يقوم كتابها عمادا من عمـــد الحكمة ؟ انها ان جاوزنا ظاهر الحرب تحول فى مجرى الانسانية. قد بلغ الانسان قبلها أرفع مشــارف الحكمة ، ثم قصر الانسان عجزا أو نقصا فهــوى يتردى فى بربرية موحشة وانصرف عجزا ونقصا عن مطالع الأولين • وشهد هذا التحــول ســـوفوكليس وسقراط وثوكيديديس فـكتبوا بحياتهم وبيانهم تراجيدية الانسانية التى لاقت مصـيرا كمصـير اوديب •

« يا قوم من أبناء طيبة : انظـروا الى أوديب الذى حل رموز الطلاسم الشهيرة وكان أقــوى رجل لا ينظر اليه أحد الا حســـده • ففى أية هاوية قد هوى • لا تقل عن رجل انه سعيد قبل أن يحضره المــوت وهو مبرؤ من البـــلاء »

(**سوفوكليس : أوديب الملك ، آخر التراجيدية**)

ليســـت حــرب البيلوبونيز الا أسى على الذين يصعدون أبطالا الى قمم المجد وقد تزودوا للمجد بآخر ما ملك الانسان من علم وقوة وأصـبحوا أهلا لتيجان البطولة ، فلا يلبثون عند آخر دائرة ان تدور عليهم دوائر القدر • اذا نودى الأبطال دخل الحلبة وضاء ، من أبصره هزه أنبل الطرب، وهو يسبق قديرا ويتوج بتاج النصر الذى تتمناه كل نفس ، فاذا هوى فجأة علت صيحات الجمـع المؤلمة لأنه لقى هذا المصير بعد كل بطولة • كان ثوكيديديس فى أثينا كأبطال الألعاب الأولومبية الذين يتغنى بفضـــائلهم بندار • كان ممســـكا بصولجان العدل فى أثينـــا وكان يقطف ثمـار الفضـــائل من أشرف غصـــونها ، وجنى ثمار الملهمات جميعا • ثم لم تمهله الأيام لينفع وطنه، وأصبح من حـــزب الاريستوقراطية فى حكومة الديماجوجية لايســـتعان به فى أمر ، وحكومة الغوغاء تنحى القادرين وتنفيهم باصرار • وأصبح ثوكيديديس وأمثــاله فى أثينــا كفيوكتيت الذى سمعوا صيحاته وعويله فنفوه مريضا عليــلا فى جزيرة جدباء مقفرة ليس له فيها عشير ، وعنده وحده سلاح هيرقل الذى لا يغلب •

ومن يدرس كتاب ثوكيديديس يجـد كأنما يتجرد من عفن زمانه ليحكم بالعقل وحده عـلى أحداث الحرب التى اصطلى بنارها • وهو يكتب كتابه للحقيقة ليعلم به أجيال الانسانية ما تتوقى وما تحذر ان عادت تجربة أثينا مرة أخرى • وهو فى سماء عقله لا يكتب للغرور وانما يعـلم بتجربته أبناء الانسانية فى كل دهر • قد فصل فتك الطاعون بأبناء قومه لتتعلم الانسانية من بعده كيف تتقى غائلة الوباء •

« أما أنا فسأصف هذا الوباء كما وقع ليهتدى الناس بما أقول ويتقوا آثاره ان نزل بهـم مرة أخرى ، فقد بلوت مرضه بنفسى ورأيت آخرين يعالجون سكرات الموت » (**ثوكيديديس : الكتاب الثانى ٤٨**) • وبهـــذه النفس الكـبيرة بحب الانسانية وصف علل السياسة التى كانت مرضا أصاب أثينا فى أوج سعادتها وقوتهـــا ، وكتب كتابه لينفع به أجيال الانسانية فى عمر الدهر • وقد نخطىء ان حـكمنا على تاريخ ثوكيديديس بعقلية من يجمعون أحداث الزمان فى كتـاب أو يقصـــون مارأوه من قصص •• لـكن كتـــاب ثوكيديديس بناء بنى على أعـز قيم التهذيب فى زمانه ، وهو صورة لما سما اليه العقل الأثينى فى ذروة التهـذيب ••• أعـــد ثوكيديديس بالعلم والتهذيب ليقود أمته التى ولدت بيان الخالدين ، فسما الى أشرف ما سما اليه شعر ســوفوكليس وبيان بيركليس، وثوكيديدس بأدبه وتهذيبه رجل

أفعال لا رجل أقوال ، لا يبتغي لهو الحديث ولا يبتغي الا الحقيقة الأزلية ، فالنظر الثاقب يضع كتابه في موضع تراجيدية سوفوكليس وأشيل ويوربيد ، ويضع كتابه في أشرف ما تشرئب اليه آمال النابغين في تهذيب زمانه ، اذ يختارون اذا ألم بهم خطب أشرف خطبائهم وأكملهم ليرثي القتلى في الحروب ويعدد مآثر الأبطال ، وهو مجد لم يبلغه الا أمثال بريكليس في زمانه ، وهو أكبر ثواب يطوله ديموستين في محنة هزيمة الكيرونيه ، وسقراط في كتاب مينتكسين • كان يحضر خطباء الرثاء ومعه أصدقاء أغراب ، فاذا سمع بلاغة الخطباء كبر في أعين ضيوفه ويأخذ تأثير الخطابة بلبه فلا يكاد يرى طريقه أياماه وما عبر به توكيديديس ببيانه عن كوارث هذه الحرب مصداق لما قال سقراط ••• وليست غاية توكيديديس بلاغة التأثير وانما غايته التي لا يحيد عنها أن يبلغ صميم الحقيقة وأن يترك للناس أثرا يبقى ذخيرة الأبد • ويعتد توكيديديس بحرصه على الحقيقة ، ويرى بيانه المحقق أقرب للحقيقة من شعر هوميروس الذي فخم الأحداث بشعره في وصف حرب طروادة• وهو أقرب للحقيقة من قصص هيرودوتس الذي بث الغرائب في قصصه ليمتع بها الأسماع •

« فأكثر الناس يمرون على الحقيقة مر الكرام ويتقبلون ما يروى لهم قبولا يسيرا ، ولا يخطىء من يصدق بياني الذي لايتبع سنة الشعراء الذين يفخمون الأحداث ببديع شعرهم فتكون أسرع قبولا وتصديقا ، ولا سنة الذين يكتبون مايكتبون من قصص ليستهووا بها الاسماع ولا يحفلون بصدقها ، وهي قصص لا تثبت للحجة وقد حض عليها الدهر وهي أحق بأن تكون حديثا أو أساطير •• اني قد اتبعت أوثق بينة على قدر ما يسع القدم • ومن دأب الانسان اذا قاتل في حرب أن يعدها أكبر الحروب وهو يصلاها ، فان سكنت وصارت ذكرى قديمة هاله الذكر ، ومن يحكم على حرب البيلوبونيز من آثارها يرى انها كانت أخطر حرب وقعت (**ثوكيديديس ، الكتاب الأول : ٢١**) • أما الخطب التي قالها زعماء المدينتين وهم يعدون عدة الحرب أو في حومة الوغى فلم يكن يسيرا على أن أذكرها بنصها كما سمعتها وكما نقلها الى من سمعوها في ناحية من النواحي ، فكتبتها كما ينبغي أن يخطب من كان في مثل هذه المواقف أبد الدهر دون أن أحيد عن فكرة كل خطيب فيما قال • وأما ماكان من أحداث هذه الحروب فاني لم أذكرها رواية عن كل راو ولم أكتبها كما أفترض ، لكني بسطت ما شهدت بنفسي وما ذكره الذاكرون ، وقد محصته بكل دقة قبل أن أكتبه، وكان ذلك عملا عسيرا لأن شهود هذه الأحداث لا يذكرونها كما وقعت وانما يذكرونها كما يطيبون نفسا بذلك ، وقد تخونهم الذاكرة • وقد لا يجد السامع لكتابي ما يجد من متاع في سماع الأساطير ، وحسبي في كتابي من فوائد أن يهتدي به الذين يحبون أن يعلموا هذه الأحداث عن بينة فيما قد تأتي به الأيام من أحداث شبيهة كلما عادت القوانين الانسانية سيرتها الأولى •

« اني كتبت كتابي ليكون ذخيرة الأبد ولم أكتبه ليكون لهوا بليغا تلهو به الأسماع ساعة من نهار •

« كانت الحرب الميدية أخطر الحروب قبل

حرب البيلوبونيز • ولكن الحرب الميدية قد وضعت أوزارها بعد معركتين فاصلتين فى البر والبحر ، أما حرب البيلوبونيز فقد طالت أهوالها وأصابت الاغريق ببلاء لم يقع مثله فى مثل هذه الفترة من الزمان • فقد أقفرت مدن من أهلها اما بفعل عدو غريب واما بالحرب بين الاغريق أنفسهم ، وتغيرت مدن ذهب عنها أهلها وحل مكانهم قوم آخرون • وقد نفى وقتل فى هذه الحرب ما يهول ذكره ، وكان ذلك فى أثر الحرب أو ما ولدت الحرب من فتن ، ووقع ما لايصدق العقل من زلازل فى أكثر الارض ، وكسفت الشمس أكثر من أى وقت خلا ، وأصاب البلاد قحط ونزل بالناس طاعون أكل الناس وأفناهم — اجتمعت الحرب وكل هذه البلايا على الناس » •

* * *

٢ — أسباب الحرب :

يميز العقل الاثينى بين الاسباب والمعاذير • فالسبب فى هذه الحرب ما بلغت أثينا من قوة بعد الحرب الميدية • هذه القوة هالت اللاسيدايمونيين • ثم تكون أعظم النار من مستصغر الشرر ، اذ شكت كورنثة وهى حليفة من حلفاء البيلوبونيز مناصرة أثينا « لكيركيرا » عليها ، وكيركيرا مستعمرة كورنثية لم تؤد لكورنثه فروض الولاء؛ وشكت ميجارا وهى حليفة من حلفاء البيلوبونيز ماحرم بريكليس على أهلها من تجارة فى موانى الأتيك ••

فلما فاضت الكأس نودى حلفاء البيلوبونيز الى أمر جامع ، وكانت اسبارطة رابضة ساكنة ، وكانت أثينا لا تريح ولا تستريح بما اجتمع لديها من مال حلفائها وسفنهم، وكان الكورنثيون أكثر بلاد اللاسيدايمونيين حنقا على أثينا وأكثر بلاد البيلوبونيز طلبا للقتال لان كورنثه كانت عريقة فى البحر والتجارة وتدرك بأس الأثينيين • فلما تشاور اللاسيدايمونيون فى الأمر حرضت كورنثه سائر الحلفاء على الشكوى ليهيجوا همة اللاسيدايمونيين ثم جاءوا آخر الأمر فعرضوا شكواهم ، وحرضوا حلفاءهم على القتال فقالوا :

« ان دين الذمة والوفاء الذى تدينون به فى سياستكم وفى صداقتكم ، قد فرض عليكم أيها اللاسيدايمونيون ألا تصدقوا وأن ترتابوا ان شكونا اليكم ما يفعل الآخرون وبذلك ارتدت حكمتكم غفلة عما يدبر من شيء وراء بلادكم • فكلما شكونا اليكم ما يهددنا من أذى قد يفعله بنا الأثينيون لا تلقون بالا لما نقول ، وتحسبون اننا انما نتكلم عما بيننا وبينهم من خلاف وبذلك لا تجمعون جمع حلفائكم قبل وقوع البلاء ولا تدعونهم الا بعد أن ينزل بنا الخطر • ومن أجل ذلك قد ألقى علينا أن نجهر فنشكو أكبر الشكوى من عدوان الأثينيين ونشكو مر الشكوى من تغافلكم ، ولو أنهم يرتكبون الأذى خفية لجئنا عليه ببرهان نعلم به الجاهلين •• وما نراكم الآن بحاجة الى بيان مستفيض لتبصروا من استعبد الأثينيون ، وأنتم ترون ما يبيت الأثينيون من شر لحلفائنا وما يستعدون للحرب • انهم غصبونا «كيركيرا» وحاصروا « بوتيديا » ليقطعوا عليكم الطريق الى « تراقية » وليحرموكم من أكبر أسطول يملكه البيلوبونيزيون، واننا نحملكم أنتم وزر التغافل • فقد تغافلتم عنهم غداة الحرب الميدية حتى عززوا مدينتهم وبنوا أسوارها الكبرى ، وسكنتم حتى سلبوا حرية من استعبدوا من بلاد الاغريق ثم مدوا أيديهم الى حلفائكم •

ان الذى يستطيع أن يدفع الذل عن المستعبدين ثم لا يدفعه كان شرا مكانا من الظالمين ، وخاصة ان حمل عن الناس شرف تحرير الاغـريق • فنحن الآن لا يكاد جمعنا ينعقـد ولا تكادون تبصرون أعمالهم جهرة • وليس جمعنا أن نبحث عما لحقنا من أذى على أيدى الأثينيين وانما لنبحث كيف ننتقم •

« ان المعتدين قد بيتوا عدوانهم ولا يمهلون الغافلين • انا نعلم ان الأثينيين يعتدون خطوة بعد خطوة ويعدون على حذر حتى لا يوقظوكم من سباتكم ، ولو علموكم أيقاظا لا تعبئون لانقضوا عليكم مرة واحـدة بكل قوتهم • أنتم أيهـا اللاسيدايمونيون أكثر الهلليين ابطاء وصبرا ، ولا تنصرون من تنصرون بالقـوة وتنصرونه بالصبر الطويل ، ولا تقضون على قوة عـدوكم حتى تستفحل وتكون أضـعافا مضاعفة • وقـد وصفتم بالروية والتبصر وهى صفة أكبر مـن الواقع • قد جاءتنا الأنباء من أقصى الأرض أن الفرس قادمون لغزونا فلم تنهضوا للقائهم كمـا ينبغى أن تنهضـوا الا حين وطئت جيوشهـم أرضكم ، وأنتم الآن تصبرون على الأثينيين وهم قاب قوسين أو هو أدنى منكم ، ولا تريدون أن تصدوهم قبل أن يغزوا أرضكم ، وتجعلون مصير الحرب فى يد القدر • ونحن نعلم أن الفـرس هزموا فى أكثر الأمر بأخطاء ارتكبوها وأننـا غلبنا الأثينيين أحيانا بأخطاء وقعوا فيها ولم نغلبهم بعونكم • والذين وضـعوا فيكم آمالهـم ولم يستعدوا أهلكتهم آمالكم • ولا تقولوا انا نقول ذلك عن عداوة ، بلى ولكن نقـوله احتجاجا عليكم، والاحتجاج شكوى الصديق على الصديق ان أخطأ • واذا اعتـدى عدو ظلما عـددت جرائمه •

« واذا كان لأحد أن يحمل باللوم على جيرانه فنحن أحق بأن نلومكم فى تغافلكم عمـا أحاط بنا من أخطار كبار • فأنتم لا تقـدرون من ثم الأثينيون الذين يختلفون عنـكم فى كل شيء والذين قدر عليكم نزالهم: انهم مبدعون خالقون، اذا رءوا فكرة انجزوها عملا • وهم قاطعـون كحد السـيف فى أفكارهم وأفعـالهم أما أنتم فتحافظون على ما بأيديكم ولا تبتكرون شيئا ، واذا عملتم عملا لا تجاوزون الضرورى • وهم ذوو اقدام يجـاوز طاقتهم ويذهبون فى لقـاء الأخطار الى أبعد ما يتصور العقل ولا ييأسـون فى المكاره ، أما أنتم فلا تكادون ما تطيقه قوتكم ولا تثقـون فى أفكاركم فى أثبت الأمور واذا أحاطت بكم المكارة لا تحسـبون أن تجـدوا مخرجا • هم يقدمون وأنتم تحرصـون ، هم يخرجون من ديارهم وأنتم أشـد الأمم مكثا فى دياركم • انهم يؤمنون ان فى الأسـفار مغانم وتؤمنون أن الأسفار تضر بأموالكم، واذا انتصروا على عدوهم انطلقوا الى أبعد حد واذا غلبـوا كانوا أقل الناس انهزاما ، ويجودون بنفوسـهم فى سبيل وطنهم كأن أجسـامهم ليست لهـم ، وليست لهم فكرة أعز من أن يعملوا عملا ينفع الوطن • واذا تصوروا فكرة لم ينفذوها شعروا كأنهم حرموا أعز ما يملكون ، وان أنفذوا عملا فكأنما ينفذون أقل ماينبغى لهم أن ينفذوه ، واذا لم ينجحوا فى عمـل استمسكوا بالأمل وحققوا مافاتهم • وهم وحدهم أحلامهم شـبيهة بآمالهم لايكادون يتصورون حلما الا أنجزوه ويبذلون

فى سبيل ذلك كل جهد ويلقون فى سبيل ذلك كل خطر ويجدون فى سبيل ذلك كل الجد مدى الحياة ولا ينعمون بما يملكون الا قليلا لأنهم لا يقنعون أبدا بما يملكون • وليس لهم عيد الا أن حققوا ما ينبغى لهم أن يحققوه ، ويعدون الفراغ والكسل نائبة وهى أشد عليهم من الجهد الدائم الأليم• ومن قال انهم خلقوا لكيلا يريحوا أو يستريحوا فقد صدق » •

* * *

هكذا خطب الكورنثيون وحرضوا اللاسيدايمونيين على القتال ورجحت كفتهم • وكان فى البيلوبونيز حينئذ تجار أثينيون أحبوا أن يردوا البيلوبونيزيين عن الحرب فاستأذنوا ليخطبوا ويدافعوا عن أثينا ، ولكنهم لم يغيروا شيئا مما غلب على نفوس اللاسيدايمونيين حتى نهض فيهم أرخيداموس ملك الاسبارطيين وكان رجلابصيرا بالأمور فبصرقومه بأن أثينا قوة بحرية لا تغلب فى معركة واحدة حتى تهدم قوتها البحرية • وقد حرص بريكليس على ألا يهيىء للاسيدايمونيين أن ينازلوا أثينا فى حرب منظمة وحرص على أنه يضربهم فى البحر فى مواقع متفرقة • وامتدت الحرب سبعة وعشرين عاما حتى قلبت الآية ، فوقع أسطول الأثينيين فى فخ فى مياه صقلية وأصبح الأثينيون كأنهم قوة برية لم يغن عنهم أسطولهم شيئا فهزموا هزيمة منكرة •• وقد أثار اللاسيدايمونيون حلفاء أثينا ، وأصبحت سياسة أثينا فى يد العامة ، وجفت أثينا حكمة حكمائها فحقت عليها الهزيمة •

وخطبة أرخنداموس فى اللاسيديمونيين أول الحرب درس فى الحرب والسياسة ، وهى كما يقول توكيديديس ذخيرة الأبد •

قال أرخيداموس فى جمع حلفاء اللاسيدايمونيين

« انى أيها اللاسيدايمونيون رجل مجرب عليم بما جربت من حروب كثيرة ، وأرى فيكم رجالا من سنى ولا أرى فيهم رجلا يتحمس للحرب بغير علم كما يتحمس لها عامة الناس ، أو يعتقد أن الحرب خير مأمونة العواقب • فان تدبرتم أمركم بحكمة لعلمتم أن الحرب التى تتشاورون فيها ليست هينة ولا يسيرة •• فلو تعادلت قوتنا وقوة جيراننا من بلاد البيلوبونيز فانا نغزوهم سريعا • لكن الأثينيين أرضهم قاصية ، وهم أعلم الناس بالبحر ، وهم على أتم الأهبة فى مالهم الخاص والعام وفى سفنهم وفى خيلهم وفى سلاحهم وفى رجالهم ، ولهم فى ذلك ما لا تملك مدينة من مدن الهللينيين ، ولهم فوق ذلك حلفاء كثيرون يدفعون اليهم خراج المال •• كيف تستهينون بهم وتهبون الى حربهم ؟ علام تعتمدون وأنتم تنفرون اليهم بغير عدة؟ أتعتمدون على سفنكم وأنتم أقل منهم سفنا فاذا أردنا أن نبلغ فى البحر مثل قوتهم وعدتهم فلا نبلغها الا بعد حين ؟ أم تعتمدون على أموالكم وهم أكثر مالا بما يملكه الأفراد وخزائن الدولة ؟ وقد يعتد معتد بأننا أكثر نفيرا فنمشى اليهم فنغزو أرضهم ، لكنهم لا يملكون أرضا واحدة ولهم فى ملكهم أرض كثيرة ، والبحر يمدهم بما يريدون • فان أردنا أن نثير عليهم حلفاءهم فلا بد من سفن نغيثهم بها وأكثرهم من الجزر ، فما هذه الحرب التى تهبون لها ؟ فاعلموا أننا ان لم نغلبهم فى البحر وان لم نقطع عليهم الموارد التى ينمون بها سفنهم أصابنا أذى شديد ، وتكون عاقبتنا وخيمة لأننا بدأناهم بالحرب • ولا يغرنكم الأمل فتظنون أن تضع الحرب أوزارها ان غزونا أرضهم ، كلا ،

انى أخاف أن يرث أبناؤنا هذه الحرب من بعدنا • ان الاثينيين ليسوا جهالا فتهولهم الحرب ، وليسوا قاصرين فيمكثوا عبيدا لأرضهم • ولست أحضكم على أن تتغاضوا عما ينزلون بحلفائكم من أذى ولا أن تغفلوا ما يبيتون من سوء • انما أدعوكم ألا تشهروا سلاحكم الآن ، وأرسلوا اليهم رسلكم بشكواكم ولا تبدوا لهم نذر الحرب جهرة ولا تبدوا لهم أننا غافلون • وأعدوا لهم اذن ما استطعتم من عدة • واجمعوا عليهم حلفاء من الاغريق والبربار ، واجمعوا المال والسفن من كل مكان • لا تثريب على من يمكر بهم الأثينيون مكر السوء ، كما يفعلون بنا ، ان يتخذوا حلفاء من الاغريق ومن غير الاغريق ليؤمنوا سلامتهم، فجمعوا ما تملكون • فان استجابوا الى رسلنا فكفى ، وان أبوا نبذنا اليهم يدا واحدة بعد عامين أو ثلاثة ونحن أقوى عدة ، فان رأوا عدتنا كفواً لأقوالنا فقد يثوبون الى الرشد وأرضهم لم تنقص ، ويتدبرون الأمر وأرضهم كاملة بين أيديهم لم يخسروا شيئا ، وليست أرضهم سوى وديعة فى أعناقهم يعتزون بها وهى سليمة لم تثلم ، فلا تردوهم الى اليأس فيعجزوكم • فان غزونا أرضهم بغير عدة استجابة لشكوى حلفائكم فانى أخاف ان نلبس أرضنا أكبر الخزى والعجز • ان شكوى الأفراد والمدن قد تجد السبيل الى حلها ، أما الحرب التى نهب اليها جميعا من أجل أفراد لا يدرى أحد عقباها ولا تضع أوزارها حتى يصيبنا خزى عظيم •

« ولا تقولوا انه لجبن ألا ينطلق الأكثرون عددا فيبطشوا بمدينة واحدة • ان لهم حلفاء كثيرين يدفعون اليهم أموالهم ، والحرب ليست كلها سلاحا ولكنها تقوم فى أكثرها على المال ، والمال يأتى بالسلاح الذى ينفع البريين الذين يحاربون الأمم البحرية • هاتوا المال قبل أن تستجيبوا لخطب حلفائكم ، فان علينا وزر هذه الاحداث ان خابت ، ولنا ثمرها ان أفلحت ، فلنتمهل ونتبصر فى عقباها •

« وهذا الابطاء والمهل الذى يلومونكم فيه لوما شديدا لا تستخزوا منه • فان هرولتم خرجتم صفر اليدين لأنكم تنطلقون بغير عدة • انا نملك مدينة حرة وهى أمجد البلاد • وقد يكون مهلنا فضيلة وحكمة ، وهذه الحكمة علمتنا ألا نزهو ان نجحنا ، ولا نهون ان أخفقنا، ومن أثارنا بالاطراء لنأتى أمرا منكرا لا ترضاه نفوسنا تصاممنا عن متعة الاطراء ، وان أثارنا أحد باللوم أبينا طاعته ولا نحفل به شيئا • ونحن بنظامنا السديد كنا أمة حرب ورأى حكيم • قد صرنا أمة حرب لأن الحياء شيمتنا وعزة نفوسنا تستخزى من العار ، ونحن أمة رأى سديد لأننا نشأنا ونحن أبعد الناس عن احتقار القوانين • ونشأنا فى الشدائد التى لا ترى عصيان القوانين حكمة • ولسنا أذكياء فى أتفه الأمور ، ولا نحتقر عدة أعدائنا ببلاغة فصيحة ، فاذا لاقيناهم لم نكن كفوا لهم وكذبت أفعالنا أقوالنا • ولا نستهين بحكمة غيرنا ونعتقد انها شبيهة بحكمتنا ونعتقد أن المقادير لا تدور دائرتها بحساب ، بل تأتى بما لا يتوقعه عقل • واذا لاقينا عدوا فرضنا أنه اتخذ أصوب رأى فنستعد له بأحسن ما نرى من رأى ، ولا نمنى أنفسنا أنه جانب الصواب ، بل نرى انه اتخذ مثلنا أسلم الطرق ، ولا نعتقد أن الانسان يختلف كثيرا عن الانسان ونعتقد أن أقوى الناس من نشأ فى الشدائد •

« ذلك الذى أورثنا اياه آباؤنا وقد اتبعنا وصيتهم فلم نضل الطريق أبدا ، وما يكون لنا أن نضيع ما أورثونا اياه، وما يكون لنا أن ننساق فنقرر فى ساعة من نهار مصير رجال كثيرين ومصير مال كثير ومدن كثيرة ومجد كبير . كلا، بل خذوا الأمور بالروية . ان قوتنا تلزمنا الروية أكثر من سوانا . أسلوارسلكم الى الأثينيين بما يشكو منه حلفاؤكم وبما تشكون من أمر بوتيديا، فالأثينيون باسطو أيديهم بالتحكيم ، ولا يحل لنا أن نؤاخذ باسطى أيديهم بالتحكيم ونرميهم بالظلم سلفا . ولا يمنعكم ذلك من أن تستعدوا للحرب، فان فعلتم ذلك اتبعتم أسلم الطرق وكان ذلك أرهب ما ترهبون به أعداءكم ... » .

* * *

٣ - الحرب :

كان توكيديديس الأثينى جنديا وقائدا فى هذه الحرب ، شهد الوغى وحضر مجامع الرأى فى أثينا وهو عليم بصير لا يحدث عنه أحد ، فلما كتب كتابه ذكر المحدثون عن عظماء الرجال انه حضر الألعاب الأولومبية وهو فتى فى الخامسة عشرة ، فسمع هيرودوت يقرأ تاريخه عن الحرب الميدية على ملأ الاغريق فهيج ذلك موهبة توكيديديس ، فأصبح لا يرجو شيئا الا أن يكتب كتابا ككتاب هيرودوت ... ويكاد توكيديديس يكذب بنفسه هذه الأحاديث ، فهو رجل من قادة الأثينيين معجب ببيريكليس فى أقواله وأفعاله ، ومعجب بسوفوكليس الذى كان شاعر أمته وكان مثله قائداً لأسطول أثينا ... فرضت عليه الأحداث أن يرثى أمته المجيدة فى كتاب ، وأن يحضر تراجيدية أثينا كما حضرها سوفوكليس وسقراط ، وأن يمرض فى الطاعون ، وأن يشهد العلل التى فتكت بوطنه ويبين أسبابها ... اجتمعت الحرب والطاعون على أثينا فمات أبطالها وكانوا ذخرها لكل ملمة ، وشهد توكيديديس من يصور هذا الوباء .

« أوديب : يابنى من طينة من ذرية كادموس العريقة ، مالكم تقعدون ببابى ركعا وسجدا مستجدين ؟ ان المدينة مفعمة بالجنود ، ملأت أنظارها الدعوات والعويل . وقد حضرت بنفسى ولم أنتظر حتى يأتينى يابنى بنبئكم رسول . فأنا أوديب الذى تعلمون جميعا ... تكلم أيها الشيخ فأنت أحق من يتكلم نيابة عن هؤلاء . مابالكم تخرون ساجدين ؟ أتفعلون ذلك رهبة أم رغبة ؟ انى أريد أن أغنى عنكم شيئا ، فلست على شىء ان لم أرث لما أصابكم .

« - القديس : أوديب يا أمير أمتنا ، انك ترانا لدى مصلى بيتك وتنظر أعمارنا ، فمنا الصغير الذى لا تحمله أجنحته بعيدا ، ومنا الشيخ الذى أعجزته الشيخوخة ، وأنا قديس زيوس ، وهؤلاء صفوة شبابنا وعامة الناس ركع سجد فى الأسواق عند معبدى باللاس وعند ركام نبوءة أبولون الاسمينى . ان المدينة كما ترى قد زلزلت زلزالا شديدا لا تستطيع أن ترفع هامتها مما غرقت فيه من بحر من الفناء . انها تفنى فى براعم ثمار الأرض وتفنى فى أغنامها وأنعامها ، وأصبحت النساء عقيمات ....

ونزل بالمدينة أقسى الوباء فأقفرت بيوت كادموس من أهلها وامتلأت ديار الموتى بالعويل والنحيب . وما نراك مذلا للآلهة ، وما ينزلك هؤلاء الأبناء الذين ساروا مستنجدين فى منزل الآلهة ، ولكنا

نراك الرجل الأول الذى نلوذ به الى الآلهة لتخفف عنا ما نزل بنا من بلاء • انك جئتنا فرفعت عن مدينة كادموس ما كنا ندفع من جزية المغنية القاسية دون أن نشكو اليك أو نحدثك بشيء ، ولكنك أصلحت حياتنا بعون الله • والآن يا أعز انسان ، يا أوديب ، انا نستجير بك جميعا وندعوك أن تجد دواء يشفينا قد يوحى به اليك اله ، اذ تكون علمته من أحد • فان تجربة المجربين أسلم النصائح • فقم يا خير الرجال فقوم مدينتنا •• هيا فأحسن اليها ، ان أمتنا تدعوك منقذها لما أبديت من وفاء من قبل • لا تجعلنا نتذكر حكمك فنقول انك توليتنا ونحن أصحاب ثم هوينا على يديك • قم فاجعل لمدينتنا قرارا آمنا • انك قد آتيتنا السعادة بالطائر الميمون فكن اليوم كفئا لما كنت بالأمس ، وان شئت أن تحكم هذا البلد فأجمل بك أن تحكمه وهو عامر بأهله من أن تحكمه خرابا • وما خير الحصن وما نفع السفينة ان كانا خلاء لا يسكنهما أحد »

(سوفوكليس : أوديب الملك ، ١ – ٣٧)

* * *

ان سوفوكليس وثوكيديديس تهذبا بتهذيب أولياء الله والانسانية : خلقا لمصير واحد ، وحملا فى العالمين لواء دين واحد ، وأشرفا كلاهما على شرف واحد ، فتشابه خلقهما وخلدا مجد أثينا ، وهالهما أن ينبت العسف فى موضع العدل وأن تنبت قوى العادلين ملكا مجيدا لا يلبث أن يكفر بما آمن به الأولون • وعلم أوديب فى ذروة المجد انه تزوج أمه وقتل أباه من حيث لا يدرى وتوالى عقاب العدل • ويلد العسف الضلالة والعمى ، وتكسرت النصال على النصال فى قلب الشاعر والكاتب • وبعدد ثوكيديديس من هذه الكوارث : الحرب والطاعون وحكومة الغوغاء والعماية فى الرأى والجنون والعسف بالحلفاء والضعفاء والغرور والرضا بالظاهر على الحقيقة ونفى الصالحين وانقضاض العدو من أرض البيلوبونيز الى امفيبوليس مورد الخشب والذهب والغلال الى أثينا فيقطع مورد الحياة للامبراطورية الأثينية ثم كارثة صقلية ثم الحرب الأهلية وانتقام الأثينيين بعضهم من بعض •

* * *

(أ) الحرب والطاعون فى حكومة بريكليس :

كان بريكليس الرجل الأول فى أثينا ، نصح الأثينيين بالحرب وبأن يخلوا مزارعهم ويأووا الى أسوار المدينة ، وشيع الأثينيون موتاهم على نفقة الدولة ، واختاروا بريكليس ليعدد فضائل الذين قتلوا فى أول الحرب فعدد فضائل الديموقراطيه الأثينية التى عاش هؤلاء فى رعايتها وماتوا دفاعا عنها • فنظام أثينا السياسى نظام ديموقراطى ، الحكم فيه للأكثرين عددا •• أساسه المساواة ، ومنازل الزعامة فيه لذوى الفضل •• قيمة كل امرىء ما يحسن •• لا يستأثر غنى على فقير بمنازل الشرف ، ولا يحجب الفقر فقيرا يستطيع أن ينفع الوطن • وهم أيسار لا ينقم جار من جاره ما يستمتع به من شيء ، ولا يؤذيه بنظرات الحسد الجارحة • وهم يرهبون القوانين المكتوبة وقوانين العرف التى لم تكتب والتى شرعت لحماية الضعفاء والمظلومين •• ويهيئون للعقل أطيب متاع بما يستمتعون به كل يوم من ثمرات الفنون ، ويأتيهم ملك البحر بثمار الأرض جميعا •• ولا يضنون بعلمهم وفنونهم على غريب ، وهم قوم يحبون الجمال فى أدق فنونه

ويحبون العلم دون أن تلين قناتهم ، ويتخذون المال لسد حاجتهم ولا يتخذونه زينة يتفاخرون بها ، ولا يعدون الفقر عارا ، وانما الفقر ألا يزحزح أحد الفقر بالجد والعمل . وللرجل فيهم حياتان : حياته الخاصة وسياسة الامة ، ومن لا يشارك في سياسة الوطن عد عالة لا خير فيه. ولا يعدون الكلام ضارا بالعمل ، وانما الضرر في ألا يتعلموا بالقول قبل أن يقدموا على العمل. فأثينا مدرسة الهللينين وكل امرىء فيها غنى بمواهب كثيرة غنية بالجمال ، وقد بنوا بمواهبهم ملكا عظيما . وأثينا بما تنجز من أفعال أكبر من شهرتها ولا يستكبر أعداؤها على ما تنزل بهم من عقاب ، ولا يشكون من تحكمهم أثينا أن حكامها غير أكفاء .. وقد بنت آثارا عالية ، وهي لا تنكر ولا حاجة بها الى شاعر كهوميروس ليمجدها ولا الى كاتب ينشد محامدها ليمتع الأسماع ساعة من نهار ثم لا يلبث متاع الاسماع أن يزول ولا تلبث الحقيقة أن تكذب ما يقول ... قد أرغموا الأرض والبحر على أن يذعنا لهم، ونصبوا في كل مكان نصبا يحدث بمجدهم من أجل هذا الوطن .. رأى هؤلاء القتلى بنفس راضية ألا يخونوا أمتهم وقاتلوا وقتلوا ومن بقي بعدهم لا يتمنون شيئا أكبر من أن يلحقوا بهم ... ان الماجدين لا يوارون كما تنظرون في قبور من حجر منقوش بقدر ما يعيشون في قلوب الذاكرين خالدين فيها أبدا ... والسعادة لا تكون الا في الحرية ، والحرية من شيم النفوس الكبار .

الطاعون : « قد دفن الأثينيون قتلاهم في أول الحرب في شتاء عام ٤٣١ق.م. ، فلما انتهى الشتاء العام الأول في هذه الحرب ، ولم يكد الصيف يطلع ، حتى عاد البيلوبونيزيون بثلثي قوتهم فغزوا أرض الأتيك ، وكان على رأسهم ارخيداموس بن ريكسيداموس ملك اللاسيدايمونيين ، ولم يلبثوا الا أياما قليلة حتى هبط الطاعون على أثينا ، وقد قيل انه هبط على ليمنوس مرارا قبل هذا وأصاب مرارا بعض بلاد الاغريق . ولا يذكر أحد وباء كان أشد فتكا بالحياة من هذا الطاعون .. قد عجزت فيه حيلة الأطباء وتفانوا وهم يعالجون المرضى ، ولم يغن عن الناس علم ولا حيلة ، ولم تنفع صلاة ولا استجارة بالمعابد ، وغلب الوباء الناس فاستسلموا له .

« وقيل انه شب في بلاد الحبشة في أعلى مصر ، ثم هبط مصر وليبيا وأكثر أرض ملك الفرس ثم هبط فجأة على الأثينيين . وقد هبط أولا على البيريه حتى قال الناس ان اللاسيدايمونيين قد بثوا السم في الآبار ، وأيامئذ لم يكن في هذه الأرض عيون ، ثم تفشى الوباء الى أعلى المدينة وفتك بالناس فتكا ذريعا . وليقل كل امرىء ، الطبيب وغير الطبيب ، ما يعلم من أمر هذا الوباء وما يعلم من أصله ، من أين أتى وأي دواء يحد من وطأته . أما أنا فسأصف هذا الوباء كما وقع ليهتدى الناس بما أقول ويتقوا آثاره ان نزل بهم مرة أخرى ، فقد بلوت مرضه بنفسي ورأيت آخرين يعالجون سكرات الموت .

« تصيب الناس بغتة وهم أصحاء حرارة شديدة في رءوسهم والتهاب في أعينهم ثم تكون ألسنتهم وحلوقهم كلون الدم وتتقطع أنفاسهم وترسل رائحة كريهة ويعقب ذلك عطش وحشرجة لا يلبث المرض بعدها أن يهبط على الصدر بألم شديد . واذا تجمعت غلواؤه في القلب ثار القلب ولفظ كل ما تعارف عليه الاطباء

من ألفاظ القيء ، وصحب ذلك وجع فظيع ، وأكثر المرضى تثور أحشاؤهم ولا تلفظ شيئا وتتقلص بآلام لا تطاق ثم تكف الأوجاع عن قوم وتتمادى على آخرين •

« ومن يلمس ظاهر الجسم لا يجده ساخنا ولا باهت اللون ويجده أميل للحمرة شاحبا وتنتشر فوقه حبات صغيرة وقروح ، وجوف البدن كالنار الملتهبة لا يطيق مس أرهف الثياب والغطاء ولا يطيق الا أن يمكث عاريا ولا يحب شيئا أكبر من أن يغمس في الماء البارد • وأكثر المرضى الذين كانوا بغير رقابة غمسوا أنفسهم في الآبار ليطفئوا عطشا لا يسكن ، ويستوى من شرب قليلا أو كثيرا ، ويصاب المرضى جميعا بأرق وتعب لا ينتهى •

« ولا يضمحل الجسم والمرض في عنفوانه ، بل يقاوم الجسم حدة البلاء فوق كل تصور ، ويموت من يموت بعد تسعة أيام أو سبعة منذ أصبح الجسم كاديا • فاذا قاوم مريض مرضه أو نجا من الموت هبط المرض على حوض البطن وأصابه بقرح فظيع ويتبعه اسهال شديد فيموت أكثر الناس من الاعياء ويهبط الوباء من أرجاء الرأس الى سائر الجسم • ومن نجا من الموت لا ينجو من عطب يصيب أطرافه وقد يهبط على الأعضاء التناسلية وأطراف الأيدى والأرجل ، ومن نجا لا ينجو من بتر هذه الأعضاء أو يصيبه العمى • وقد أعقب المرض النسيان عند بعض المرضى فأصبحوا لا يعرفون أنفسهم وأقرب الناس اليهم •

« وتفشى هذا المرض فوق ما يتصور العقل ، واشتدت وطأته فوق ما تطيق طبيعة البشر ، وأتت بما لم يأت به مرض آخر : فالطير والوحوش التى تنهش لحم البشر عافت هذه الجثث على كثرتها واذا ذاقتها هلكت ، وآية ذلك ان خلت سماؤنا من هذه الطيور • ولا تحوم هذه الطيور حول هذه الجثث ، والكلاب التى ألفت معاشرة من ماتوا كانت دليلا أكبر •

« واذا تجاوزنا عما يختلف فيه الناس في وصف بعض صفاته فهذه صفته اجمالا •• اذا هبط الوباء على أحد لا يصيبه في وطأته مرض آخر ، واذا أصاب أحدا فهذه نهايته : قد مات قوم دون أن يعنى بهم أحد ، ومات قوم آخرون رغم كل عناية • لم يجدوا دواء واحدا يداوى من ينزل به هذا المرض ، فما ينفع واحدا قد يضر الآخر • ولم يقاوم هذا المرض جسم ما ، واستوى لديه القوى والضعيف ، واغتال كل نفس ولا تنفع لديه كل وسائل العلاج • وشر ما في هذا البلاء اليأس حين يهبط المرض على مريض، فالمرضى يستسلمون لليأس ولا يقاومون شيئا • واذا اقترب صديق ليواسى صديقا هلكا جميعا كالأغنام • وأحدث ذلك أكبر الخراب • فالذين أبوا أن يقربوا أصدقاءهم خوفا من العدوى هلكوا بمعزل وخربت بيوت كثيرة • لم يتقدم أحد لعلاج مرضاه ، واذا اقترب أحد من المرضى هلك وخاصة من دفعتهم مروءتهم لمعاونة المرضى ، واذا استخزوا أن ينجوا بأنفسهم جاءوا يعاونون أصدقاءهم لأن أهل المرضى قد أعجزهم المرض فلم ينهضوا ليغيثوا صريخ مرضاهم ، واذ انجا أحد من هذا المرض كان أكثر أسى على من مات أو عالج سكرات الموت لأنهم جربوا وطأته وأصبحوا يمنون أنفسهم السلامة ، لأن هذا المرض لا يصيب أحدا مرتين ولا يقتل أحدا

مرتين ، ومن نجا هنأه الآخرون ، والذين نجوا يستبشرون لا يهلكون بعدئذ بمرض آخر .

« والذين جاءوا من القرى ليحتموا من الحرب في أسوار أثينا تجمعوا فزادوا لهب الطاعون اشتعالا ، وكان أكثر الناس عرضة لهذا البلاء أولئك الذين قدموا فلم تكن لهم بيوت يعيشون فيها وعاشوا في أكواخ خانقة من الحر في قيظ الصيف فأدركهم البلاء في هذا الحشر بغير نظام ، فتراكم الموتى أكواما بعضها فوق بعض وكانوا يتقلبون في الطرقات وحول ينابيع الماء ظمأى وهم يحتضرون ، والمعابد التي سكنوا امتلأت بالموتى . فلما بلغ البلاء أشده لم يدر الانسان ما يفعل وهان عليه ما كان يقدس من شيء ، وأغفلت سائر القوانين التي كانت متبعة في دفن الموتى ... قد ألقى الموتى بغير حساب ... وقد عجز الناس فلم يجدوا ما ألفوا أن يجدوا في دفن موتاهم .. وتفشى في أهلهم الموت فدفنوهم بغير وقار فحملوا موتاهم وكرموهم فوق نار أوقدها غيرهم ، أو رموا موتاهم فوق نار أوقدوها هم ثم ولوا مسرعين .

« وقد جاء الوباء بعد الموت بفوضى في المدينة. قد استهان الانسان فأتى من المنكر واللذات جهرة ما كان يفعل من قبل خفاء ، وقد رأى الانسان دائرة الأيام ما أقربها على السعداء الذين يموتون بغتة ، ويرى المعدمين يخلفون الأغنياء في أموالهم فأقبل الانسان على كل متعة عاجلة . وآمن الانسان ان الانسان وماله عرض زائل لا يعمر الا ظل نهار ، ولم يحفل الانسان أن يجد في سبيل ما يعتقد انه خير لأنه لا يؤمن أن يعيش حتى يبلغ مأربه ، وجعل الخير في اللذة من حيث جاءت ، ولم يحسن غضب الله ولا قوانين البشر ، واستوت التقوى والفجور ، وأبصر الانسان الأتقياء والكافرين صرعى على سواء ، وكفر الانسان فلا يرى أن يعيش حتى يكفر عن سيئاته بل هو يرى العقاب معلقا على عنقه وعليه أن يستمتع بالحياة قبل أن ينزل العقاب » .

هذه هي البلايا التي حلت بالأثينيين .. أكل الطاعون رجالهم داخل أسوار المدينة، ومن وراء الأسوار جيش يغزو أرضهم . في هذا البلاء تذكر شيوخهم شعرا كانوا ينشدونه صغارا كنبوءة قديمة :

« ستنزل بهم الحرب الدورية ومعها البلاء ، وأنزل الأثينيون غضبهم على بريكليس الذي نصحهم بالحرب فدعاهم بريكليس الى مجلس الثورة وخطب فيهم ليغير ما بأنفسهم فقال :

« قد أنزلتم غضبكم على وكنت أتوقع ذلك.. نعم اني أعلم سبب هذا الغضب وقد دعوتكم الى هذا الجمع لأذكركم وألومكم على ما حملتموني ظلما من غضبكم علي وعلى ما غلبكم من أثر البلاء . اني أعلم أنه من الخير لكل فرد أن يعيش في وطن كله سعيد على أن يكون الفرد ناجحا في وطن منهار بناؤه . فالفرد السعيد في سفينة غارقة يهلك ان غرقت ، والفرد الشقي في وطن سعيد قد يسلم . فالوطن قادر على احتمال ما يصيب أفراده من بلاء ، وأفراده لا يحتملون بلاءه . كيف لا تقومون جميعا لحماية وطنكم ؟ أفيقوا مما أصابكم ولا تجعلوا لما أصابكم في نفوسكم سلطانا ينسيكم سلامة الوطن ثم تحملونني وزر ما تجدون لأني نصحتكم بالحرب ووافقتموني على ما نصحتكم به ...

وأنتم تصبون على غضبكم ولست أتخلف عن أحد في العلم بما يجب أن نفعل ولا أتخلف عن أحد في بيان ما ينبغي أن نعمل ، وأنا رجل وفي لوطني ولا تغلبني شهوة المال ، فمن كان عليما بما ينبغي أن يكون وكان عاجزا عن بيانه فهو والجاهل سواء ، فان جمع الصفتين العلم والبيان ولم يكن مخاصا لوطنه فقد يحيد عن الحق ، فان اجتمعت له صفة العلم والبيان والاخلاص للوطن وغلبه حب المال باع ذمته وباع كل شيء.. قد آمنتم يوم اقتنعتم بما نصحتكم به للتأهب للحرب • انني أنصح لكم من سائر خطبائكم ، فبأي حق أحتمل اليوم وزر ما كان ؟ فمن كان حرا مختارا بيده أن يختار السلم أو الحرب ثم اختار الحرب على السلم كان من الجاهلين ، فان كلف الانسان خطتي خسف اما الذل واما لقاء الخطر • فمن هرب من الخطر كان أولى باللوم ممن يتصدى للأخطار • وأنا ما زلت على رأيي الذي نصحتكم به ولكنكم انتم تحولون عما اقتنعتم به • قد قبلتم نصحي وأنتم أصحاء فلما أصابكم البلاء ندمتم وبدا لكم ان رأيي خطأ حينما وهنت عزيمتكم • ان الألم غلب على نفوسكم فغاب عنكم ما كنتم ترون من نفع في رأيي ••• قد جاءكم بلاء كبير ولم يمهلكم بل استبد بكم مرة واحدة فوهن عزمكم عن احتمال ما أقررتم به ، واذا صدم العقل بغتة هان وقد أحاطت بكم المكاره ثم رميتم بهذا الوباء ، ومع ذلك فان الذين يعيشون في بلد عظيم وشبوا على أدبه العريق فعليهم أن يوطدوا العزم على لقاء أكبر البلايا ، ولا يضيعوا شرف وطنهم • ويستوي من يعتد بنفسه فيتطاول الى ما ليس له ومن يتهاون فيضيع ما يملك ، كلاهما بغيض عند

الناس • فانسوا آلامكم الخاصة واذكروا سلامة الوطن • ليس لكم أن ترتابوا فتخافوا أن تطول آلام الحرب دون أن تكون الغلبة لكم ، وقد بينت لكم غير مرة انكم بذلك الظن تجتنبون الصواب • فدعوني أبين لكم هذه ، وهي انكم تملكون ملكا كبيرا •• وما كنت أبدي وأعيد في هذه الفكرة لولا أن رأيتكم تتخاذلون بغير حق،فقد تحسبون انكم لا تحكمون الا حلفاءكم•
وأنا أقول لكم انكم سادة احدى اثنتين يملكهما الانسان : ملك البر وملك البحار ، فأنتم سادة البحار فيما تملكون الآن وفيما تمدون فيه ان شئتم • ولا يستطيع ملك ولا شعب أن يمنع سفنكم وقوتكم في البحار ، ان ملككم فيما تسودون على البحار وليس ملككم في الدور والحقول التي تأسون عليها أسى كبيرا لأنها خرجت من أيديكم ، فلا تحزنوا ولا تأسوا على بيوتكم الا كما تأسون على حلية أو زينة ، وكلها هينة رخيصة اذا وزنت بملك البحار • واعلموا ان الحرية التي يحققها لنا هذا الملك ان نحن حميناها ردت الينا ما نأسى عليه ، وأننا ان استعبدنا فلا قدر لشيء نملكه بعد الذل ، ولتكن لنا في آبائنا أسوة حسنة في حفظ هذا الملك •
انهم ملكوا هذا الملك وحفظوه بقوتهم ولم يأخذوه هبة عن أحد • قد حفظوه وأورثونا اياه، وأنه لأكبر عارا أن نضيع هذا الملك ولا نحتمل لطمات القدر وتحفظه • ان علينا ان نلقى أعداءنا بنفس عالية لا تعبأ بهم ولا ترهبهم • وقد يولد الغرور من الجهل السعيد وهو صفة الجاهلين ، واحتقارنا لأعدائنا هو ثقتنا عن علم بأننا نحن الغالبون ، ونحن أهل لهذه الثقة • واذا التقى الجمعان وهما يستويان قوة فأيهما كان مؤمنا

بنفسه زادته ثقته اقداما ، وليست ثقتنا أملا خادعا كالسراب ولكنها ثقة عن علم بقوتنا وما نملك ، وهي التي تزيدنا عزما ويقينا • ان عليكم أن تنهضوا لحماية شرف هذا الملك الذى تفخرون به جميعا ؛ ولا تفروا من تكاليف هذا الملك أو تكفوا عن طلب المجد • ولا تظنوا اننا نجاهد فى سبيل غاية واحدة ، فاما الحرية واما الذل •• كلا••انما تحاربون لتصونوا هذا الملك ولتنقموا نقمة الناقمين الذين ينقمون عليكم هذا الملك •• لا سبيل الى أن تلقوا عن كاهلكم تكاليف هذا الحكم مهما ظن أحدكم عن خوف ان القعود شجاعة •

« ان ملككم سيادة وتسلط •• من ملكه بدا جائرا ومن ضيعه لا ينجو من الخطر •• ان الذين يدعون الى نبذ هذا الملك قد يضيعون الوطن فى لمح البصر حتى ولو مكثوا أولياء مصيرهم••فجدوا لأن الراحة لا تدوم الا بالجد، والمدينة الحاكمة لا تستريح ، وانما يستريح المستعبدون ، وراحتهم ذل واستكانة •••

« لا تستجيبوا للذين يثبطونكم ولا تنزلوا على غضبكم لأنى نصحتكم بالحرب ، فقد اقتنعتم بهذا النصح • وقد جاء العدو لغزو أرضنا وهذا طبيعى ، فقد أبينا أن نخضع أو نذل ، وهبط علينا مع الحرب هذا الوباء ، وهو بلاء لم يكن فى تقدير أحد •• والذين يثبطونكم يحملوننى نصيبا مما يكرهون من هذا البلاء وهذا ظلم ، والا فردوا الى الفضل فيما تقبل به الحظوظ عليكم بغير حساب •• فاحتملوا ما تأتى به المقادير مسلمين لله ، واحتملوا ما تأتى به الحرب شجعانا وكانت هذه سجايا وطننا فيما خلا من الزمان ••

فلا تقطعوا ما أمرت به المدينة أن يوصل ، واعلموا ان مدينتنا قد علا ذكرها فى العالمين لأنها لم تثن هامتها لأى بلاء وبذلت فى الحرب أغلى البذل •• جادت بالحياة وبذلت أشق البذل وملكت أكبر ملك ، وان قدر علينا أن نزول يوما (لأن كل شيء قد يزول) فسيبقى ذكر أثينا خالدا أبد الدهر •• فنحن حكمنا أكثر الهللينين وصددنا أشد الاعداء •• رددناهم بأنفسنا أو رددناهم يدا واحدة نحن وحلفاؤنا ، وكانت مدينتنا أغنى بلاد الله وأمجدها ، وهذا المجد قد يلومه الفارغون ولكنه أسوة شريفة ومثل أعلى تشرئب اليه أعناق العاملين ، والحسد آية العجز والعاجزين •• ان نصيبكم ان ترموا اليوم بالعداوة والبغضاء لأنكم تؤمنون انكم جديرون بأن تحكموا غيركم ، ومن حسد على ما يأتى من أمجد الافعال فلا جناح عليه ، ولا يدوم الحقد طويلا • فمجدنا اليوم ساطع ، ولن يمحى مجدنا من ذكر الذاكرين فيما يأتى من الدهر • فلا تجعلوا لكم همة لغير ما تنالون من مجد ، فيما يأتى من الايام وما تتحاشون فى عار قد يصيبكم فيما أنتم فيه الآن، فضعوا ذلك نصب أعينكم ولا ترسلوا رسلا الى اللاسيدايمونيين ولا تظهروا جزعكم مما نزل بكم من بلاء ، فمن لقى البلايا بنفس راضية وصارع البلايا بكل قوته فهو أقوى الأقوياء ، وتستوى فى ذلك الافراد والأمم » •

* * *

(ب) حكم ثوكيديديس على بريكليس وخلفائه :

كانت هذه خطبة بريكليس التى أراد أن

يدافع بها عن نفسه وأن يدفع عن نفسه غضب الأثينيين ويدفع عن الأثينيين ما أصابهم من رزء . وقد أقنع الأثينيين بسياسته فكفوا عن ارسال رسلهم الى اللاسيدايمونيين وعزموا عزما أكيدا على الحرب رغم ما أصاب كل امرىء من قرح فى حياته ، فالعامة يألمون لأنهم كانوا يملكون شيئا قليلا فأصبحوا لا يملكون هذا القليل ، والأغنياء يألمون لأنهم فقدوا ما كانوا يملكون من ثراء جميل فى قراهم ... حرموا بيوتهم الجميلة وفراشهم الوثير ، وأشد ما آلمهم جميعا أن يلقوا الحرب بدل السلام . ولم يسكن غضبهم على بريكليس حتى عاقبوه بعقوبة مالية لكنهم لم يلبثوا الا قليلا حتى تحولوا عن غضبهم ، والملأ سريع التحول ، فاختاروه قائدا وسلموه كل سياسة المدينة ، فقد نسوا آلامهم قليلا ورأوا أن بريكليس كان أصلح من يتولى مصيرهم . فحكومته أيام السلم كانت حكومة رشيدة عصمت الوطن من الزلل والاخطاء وبلغت أثينا فى أيامه ذروة قوتها ، ولما نشبت الحرب أظهرت الحرب حكمته ... مات بعد عامين وستة أشهر ، ولما مات تجلى بعد بصيرته ، فقد نبأهم بأن النصر سيكون لهم ان هم خلدوا الى السكينة فيما بينهم من خلاف فى الداخل ، وان هم جعلوا للبحرية كل همتهم ، وان هم تحاشوا ان يوسعوا ملكهم أثناء الحرب ، وان هم حذروا أن يزجوا بالمدينة فى خطر فخالفوا كل ما وصاهم به .. فقد أتوا أشياء لا تمت للحرب بسبب ، ودفعتهم مطامعهم الشخصية وحبهم للكسب ان يرتكبوها ، فان أفلحت ردوا الفضل الى أنفسهم وأن خابت كان ضررها على المدينة وعلى الحرب ، وضروا بذلك أنفسهم وضروا حلفاءهم . والفرق بين بريكليس وخلفائه انه كان قديرا بحكمته وهيبته ولم يكن للمال سلطان عليه ، وكان سلطانه على الشعب سلطان الاقناع الحر ، ولم يسلم زمامه للشعب وكان هو مسير الشعب ، ولم يبلغ سلطانه من أبواب مريبة فأغناه ذلك عن تملق أهواء الشعب ، بل كان يستطيع أن يعترض أهواء الشعب ويأخذه أخذا شديدا اذا غضب . فاذا رأى الشعب مغرورا غرته نفسه بغير حق خطب فرده الى الرهبة والحذر ، وان رآه خائفا خاشعا بغير حق خطب فرده الى الثقة واليقين .. كانت الحكومة فى حكمه حكومة ديموقراطية اسما وكانت فى الفعل حكومة الرجل الاول ، فخلف من بعده خلف استوت أقدارهم وتنافسوا على الصدارة فتملقوا الشعب وأسلموه زمام سياسة المدينة فأوقعوا المدينة وسلطانها العظيم وملكها الكبير فى أخطاء قاتلة ، وخاصة مازجوا بها فى كارثة صقلية .

***

٤ ـ حكم العسف أو التيرانية :

يقول سوفوكليس على لسان كريون فى « انتيجونة » : «ليس لمرتكب هذا الجرم الا الموت وهذا جزاؤه ، ولكن الآمال وابتغاء الكسب قد ضيعت قوما كثيرين » .

ولقد كانت « التيرانية » فى أثينا ترمى بالموت من يعصى قوانينها ومن يثور عليها ، وانها كانت بذلك سيفا بتارا فى أيدى زعماء الديموقراطية أشباه كليون الذى أمر باعدام ميتيلين لأنها ثارت على أثينا ، وأعدموا جزيرة بيلوس لأنها لم تحتمل ذليلة سلطان الأثينيين ، ولكن سوفوكليس أثبت فى أنتيجونة أن القتل لا يمنع الانسان من أداء

القوانين الأزلية الالهية التى لا تغلب ، كما أن ثوكيديديس أثبت تفصيلا أن القتل لن يمنع الانسان من النهوض لعصيان القوانين الجائرة وأنه يلقى الموت بقوة الامانى والآمال وطلبا لكسب ما حرم الانسان منه •• وبين سوفوكليس وثوكسيديديس أواصر قرابة فى أعماق الفكرة وهى أن الانسان لقى الموت راضيا باغراء الأمانى وحب الكسب • وخطبة ديودوتوس فى الدفاع عن الميتلنيين وانقاذهم من الاعدام الذى حكمت عليهم به أثينا بزعامة كليون كان مجدا وتاجا توج به ديودوتوس جبين أمته ، وكان جديرا بالخلود فى معبد الجمال والحكمة •• وما يخرجنا من كاتب تاريخ أثينا حينئذ الى أنتيجونة سوفوكليس الا شبه قريب من منطق سوفوكليس ومنطق ثوكيديديس فى النظر الى الاسباب التى تدفع الانسان أن يثور على ما يراد به من الخسف ، لا يبالى بالموت ـ الامانى وما تصور للمحروم من نعمة الحرية ، والآمال التى تصوره قابضا على ما يتمنى من شىء • وهاتان القوتان أشد قوة من رهبة الموت • والشبه قريب بين سوفوكليس وثوكيديديس : ان أثينا رغم الديماجوجية والمساواة والايمان المنبث بين العامة وحكامهم بأن التيرانية هى القانون الطبيعى الذى مكن للقوى من أعناق الضعيف ـ وذهبت بهم هذه التيرانية كل مذهب فنفوا من المدينة أبطالها وتسلطوا بالجور والموت على حلفائهم ، وكلما ناهضهم مناهض معارض اتهموه بأنه يعارض بمال كسبه خفاء ، واتهم أصحاب الرأى بالرشوة مثلما يتهم كريون وأوديب فى تراجيدية سوفوكليس كل معارض ••• والثانية أن عقاب الموت لا يرد الانسان عن مناهضة القوانين الظالمة الفاسدة •

قال ديودوتوس بن أميكراتوس :

« وأنا الآن أنهض لا لأنفى التهمة عن الميتلنيين ولا لألقى عليهم تهمة فان تفكرنا فلمن الشورى فى هذا الجمع •• نحن نتشاور لنجد أحسن الرأى الذى ينفعنا • فلو أنى آتيتكم بكل دليل على أنهم مذنبون فلن أحرضكم على قتلهم الا أن تصيب مدينتنا خيرا من وراء قتلهم ، ولو انهم كانوا أهلا للعفو فلا أعفو ان لم يكن العفو خيرا للمدينة • فمستقبل المدينة عندى أولى بالنظر من حاضر هذه الأحداث •• وقد استمسك كليون بأخص ما ينفعكم فيما تأتى به الأيام ليودع الحلفاء عن الثورة فتقدم اليكم بعقوبة الإعدام ، وأنا أيضا استمسك بأخص ما ينفع المدينة فى مستقبلها ولكنى أرى عكس ما يرى كليون • وأنا أسألكم ألا تتأثروا ببلاغته فتنبذوا ما أسوق اليكم من خير ، فقد تخالونه أقرب للحق منى بشدة حنقكم على الميتلنيين •• فنحن لا نقضى فيكم لنحاكمهم ، ولكنا نتشاور فى أمرهم لعلهم ينفعوننا أو نصيب منهم خيرا • فقد سنت عقوبة الاعدام فى بلاد كثيرة وجعلوها عقابا لجرائم أقل من جرائم الميتيلنيين •• ومع ذلك فقد حملهم الامل الى ارتكاب المخاطر ، ولولا هذا الامل ما لقى أحد المكاره •• وأى أمة تثور اذا رأت عدتها وقوتها من نفسها ومن حلفائها أقل مما تقبل عليه من خطر ، وقد خلق الناس ليخطئوا فى حياتهم الخاصة والعامة ولا نجد قانونا يرد الانسان عن الخطأ •• فقد جربت سائر العقوبات وفرضت كافة العقوبات على الانسان لتردع المذنبين عن ذنوبهم••وكانت عقوبات أخطر الجرائم فيما مضى أقل من عقوبة الموت ، فاستهان بها الانسان فى عمر الزمان ••

ثم رفعت العقوبات الى الاعدام ، فاستهان الانسان بالاعدام .. آتونى برادع أردع من عقوبة الموت ، فالموت غير رادع فى شيء . فالفقر يهد الحاجة والضرورة بالاقدام ، والغنى يرضى النفس الأمارة بالطمع وزهو الغرور بالتكاثر فى الأموال والثمرات . وأى الناس يرضى بقدره ؟ فكلما سدت على الناس سبل مصائرهم بقوةقاهرة لا تغلب ركبوا لها الأهوال .. وما من نفس الا مؤتمرة بالحب والأمل . الحب حافز تتبعه المنى، الحب يقبل بنية ينويها فتنهض المنى فى أثره تغرى بنجاح المقادير ، وكم من نفس آذاها داعى الحب والمنى والأمانى .. قوى خافية فى النفس أشد قوة مما تبصر من مخاطر ، والمقادير فوق هذه المخاطر قوة دافعة تدفع كل نفس الى الاقدام ، وهذه القوى لا تتسلط بالفعل حين تنهض فتزج بالانسان الى لقاء ما لا يستطيع من الأخطاء . وما يأتيه الفرد مرة تأتيه المدائن أضعافا مضاعفة ، لأن المدائن تنهض لأعز أمانى البشر اما لبلوغ حريتها أو لتسلط سلطانها على الأمم - والفرد اذا أحاطت به أفراد أمته حسب نفسه بغير منطق أكبر بأسا وقوة . وبصريح العبارة أقول لكم انه لا سبيل الى أن تلقوا سدا من قوة القانون ولا من مكروه من المكاره فى وجه الطبيعة البشرية اذا انطلقت بحماستها ، ومن يرى غير هذا الرأى فانه خادع نفسه .

« فلا تقعوا فى خطأ الرأى وتؤمنوا أن عقوبة الموت رادعة ، ولا تقطعوا على الثائرين أملهم فى أن يستغفروكم ويكفروا عن ذنوبهم قبل أن يستفحل ما يفعلون . انظروا اذن - لو أن مدينة همت بالثورة عليكم ثم تبينت أنها لن تفلح وهى ما زالت قادرة أفلا ترونها تسعى الى الصلح وتعوضكم من مالها خسارتكم وتدفع اليكم الخراج فيما يأتى من الزمان ؟ .. فاذا أخذتم برأى الآخر فأى مدينة لا تستعد لحربكم بعده أحكم من عدتها اليوم ولا تصر على حصاركم الى الرمق الأخير اذا علمت أنه لا سبيل الى الصلح عاجلا أو آجلا . واذا حرموا الصلح صمدوا وكلفوكم تكاليف حصار لا ينتهى واحتملتم بذلك أذى أى أذى . فان غلبتم المدينة بعد أن استعصى الحصار عليكم فستأخذونها خرابا لا تستطيع أن تعوضكم من خسارتكم شيئا ولا تدفع لكم جزية فيما يأتى من الزمان ، والمال هو قوتكم على أعدائكم فى الحرب .. ولسنا هنا بقضاة نحكم على المذنبين فلا تأخذنا فيهم رحمة ولا شفقة ، ولكنا أمة نتشاور لنرى كيف نسوس المدائن بالرحمة فيما تقبل به الأيام - وكيف نأخذ مالا من بلاد غنية قوية ، ولسنا نتقى المكاره بالقانون وانما نتقيها بيقظتنا وعنايتنا ، ونحن نفعل الآن عكس ذلك . فاذا قبضنا على مدينة حرة تحتمل حكمنا كرها وتثور ابتغاء استقلالها ظننا أن واجبنا يفرض علينا أن ننتقم منها انتقاما صارما - انه لا يحل لنا أن نعاقب الاحرار عقابا صارما اذا ثاروا ، لكن علينا أن نستيقظ بكل جوارحنا قبل أن يثوروا ونحذر أن يزجوا بأنفسهم فى فكرة الثورة ، فان غلبناهم احتملنا ذنبهم كأن لم يكن شيئا .. »

* * *

هل من سبيل الى تحديد تاريخ أنتيجونة اعتمادا على شبه لفظى بين قول كريون فى أنتيجونة « جزاء من يعصى أمرى الموت .. لكن الأمل والريح كثيرا ما يلقيان بالانسان الى التهلكة،

وبين قول ديودوتوس بأن « الآمال والريح يدفعان الى الثورة التى لا تهاب الموت » ؟

هناك عبارة فى أنتيجونة تشير الى المدائن التى ترك كريون رفات أبنائها نهبا للكلاب والطير .. ففى أى زمان فى تاريخ أثينا أيام سوفوكليس ترك الموتى فى العراء نهبا للكلاب والطير ؟ لا نعرف حادثة بالتحديد ولكن نعتقد أن ديودوتوس أنقذ الأثينيين من أن يترددوا فى هذه الجريمة فى ميتيلين .. فقد رأوا وهم غضبى تثيرهم خطابة كليون أن يعرضوا رجال ميتيلين على السيف ثم يبيعوا النساء والاطفال عبيدا ، ولو انهم فعلوا لتركوا قتلاهم هملا فى العراء لا تمتد اليهم يد لتدفنهم .. ولم يلبثوا بعدئذ الا قليلا حتى قتلوا جزيرة ميلوس بغير ذنب الا أنهم أقل قوة من الأثينيين . ومنطق الأثينيين اذن كان منطق القوة ، فالناس لا يحكمون العدل والقانون بينهم الا حين تتساوى قوتهم وضعفهم ، اما ان اختلفت قوتهم فعل القوى ما بدا له وما على الضعفاء الا أن يطيعوا ..

ولم تردد اسمينه هذا المبدأ لتثنى به ارادة أنتيجونة :

اسمينه : والآن فاذكرى أننا بقينا وحدنا ، وأى بلاء ينتظرنا اذا عصينا القانون وخرقنا أمر الطغاة وسلطانهم .

وسنرى شبها بين قول كريون لابنه فى أنتيجونة

« كريون : هل تأمرنى المدينة بما يجب أن آمر به ؟

هيمون : أنظر كيف تتكلم كأنك ما زلت صبيا .

كريون : لن أحكم أنا هذه الأرض ، أأحكمها لنفسى أم أحكمها للآخرين ؟

هيمون : الوطن ليس ملكا لفرد واحد .

كريون : ماذا ؟ أليس الوطن ملكا لحاكمه ؟

هيمون : لا يستطيع أحد أن يحكم بمفرده أرضا الا أن تكون صحراء مقفرة من أهلها » .

بين هذه الأقوال وبين قول الأثينيين قبل أن يقتلوا جزيرة ميلوس شبه لفظى صريح .

« الأثينيون : نحن هنا لنحقق ما ينفع حكمنا ويحقق سلامتنا .

الميليون : اذا كنتم حريصين على سلطانكم تلقون أشد الأخطار فى سبيل سلطانكم ، واذا كان المستذلون فى حكمكم حرصا على خلاصهم يلقون أشد الأخطار فى سبيل حريتهم فنحن لا نطرح الجبن والهوان ونحن مازلنا أحرارا وندفع ما يسلمنا الى العبودية والذل .

الأثينيون : لن تفعلوا ذلك ان كنتم راشدين ، فليس بيننا وبينكم من صراع متكافىء لنعلم أينا أشجع ، وقد يجللكم العار ان ترعوا سلامتكم ولا تلقوا عدوا أشد منكم قوة وغلبة .

الميليون : نحن نعلم أن الحروب تتحكم فيها مقادير أعم من القوة التى تملكها كلتا الطائفتين ، فان سلمنا لكم ببساطة فانا نكفر بآمالنا ، فان الامل يحدونا أن نعمل وأن نصمد لكم .

الاثينيون : الأمل فى المخاطر سلوى ويلوذ به

الذين يملكون قوة متفوقة • قد تضرهم الآمال دون أن تجرفهم الى التهلكة ، أما الذين يضحون بكل ما يملكون بدافع الأمل فانهم لا يعرفون كذب الامل الا بعد أن يخدعهم ، ومن جرب خدعة الأمل كفر بالأمل

(ثوكيديديس الكتاب الخامس ١٠٠ ومابعدها)

هذا الشبه بين لغة سوفوكليس وأسلوب ثوكيديديس ، بين تاريخ أثينا وأساطير الأبطال، قد يقرب الينا الاحداث التى حركت عقول سوفوكليس لاختيار أنتيجونه ليثور على عنت القانون الذى لا يرعى حرمات الله والعدل ويستبد مرة واحدة باسم الحكم والسلطان حتى يأتى أمر الله فيعاقب بما عوقبت به أثينا فى كارثة صقلية وما عوقب به كريون نفسه وفى أهله وبنيه » •

تيريزياس : « ألا فاعلم علم اليقين انه لن تنام أياما كثيرة تطلع فيها عليك دورة الشمس حتى تفدى ميتا بميت من فلذات كبدك جزاء ما ألقيت تحت الارض حيا كان فوقها ، وما قبرت نفسا بغير حق ، وأبقيت ميتا على ظهر الارض محروقا من جوار آلهة الآخرة ، وأبقيت شقيا يبعث الأسى والشفقة • لا يحل لك ذلك ولا يحل للآلهة الأعلين • انك انما ارتكبت ظلما وبغيا بغير حق ، وكذلك تترقبك آلهة الآخرة وآلهة الانتقام لتلقيك فى نفس الشر الذى ارتكبته • وانظر هل ترانى أقول مأجورا ما أقول ؟ سيرتفع بعد قليل فى أرجاء بيتك عويل البكاء من الرجال والنساء • ستهب فى وجهك عداوة سائر المدائن التى لوثت الكلاب والوحوش اشلاء أبنائها وحمل الطير نتفا غير ظاهره الى سماء المدائن » •

(أنتيجونة سوفوكليس)

* * *

هذه المقاربة اللفظية بين شعر انتيجونه وبين أسلوب ثوكيديديس فى تاريخ أثينا فى حرب البلوبونيز تقرب الينا صورة الاحداث التى بلغت أسفل الدرك فى أعماق التيرانية الأثينية والتى هيجت أعماق الغضب فى نفوس الصالحين من أبناء أثينا ويثبت أمرين :

أولهما أن أنتيجونة كانت أسطورة كارثة صقلية وأن أثينا ستدفع من فلذات كبدها ما فعل زعماء العامة بمدائن حلفائهم فى ميتلين وفى ميلوس وتكون أنتيجونه من خلق سوفوكليس فى أيام حملة صقلية •

والشبه قريب بين اسم كريون Creon الحاكم الآمر الناهى المستبد فى أسطورة أنتيجونه وبين اسم كليون Cleon الآمر الناهى المستبد فى تاريخ أثينا • فاذا سمع الاثينيون اسم كريون حمل الى أذهانهم اسم كليون • وقد خلدت الآداب المعاصرة لسوفوكليس صورة كليون ، وكان كليون داهية مهيبا وصورة الديماجوج المستبد • وما كتب ثوكيديديس وأريستوفان عن كليون يجعل كليون خطرا يهدد حياة الأثينيين ويجعله أهلا لأن يذكر فى شعر سوفوكليس •• وبين شعر سوفوكليس ونثر ثوكيديديس فى هذه

الناحية قرابة قائمة فى الرأى والحجة والغضب ، وصراع بين أخلاق الطاغية وآداب العادلين ...

« تيريزياس : ذلك ما علمته من هذا الغلام . ان الاستخارة لا تجيب ، وعلامات الاسرار لا تفصح ، وهذا الغلام يقودنى وأنا أقود الآخرين . ان المدينة تشكو من مرض جره عليها عقلك ، فقد غصت معابدنا وبيوت الله بالطير والكلاب المفترسة التى تنهش رفات ابن أوديب المسكين . ان الآلهة لا تقبل صلاتنا ولا ترضى عن عطائنا ولا لهب شحوم الضحايا ، ولا يرسل طائر صيحة مبشرة . قد كم أفواهها ما نهشت من لحوم البشر ودمائهم الملوثة .. تفكر يابنى فالخطأ مشاع بين الناس جميعا ، ومن أخطأ فالعاقل السعيد من يرجع عن خطئه ولا يتمادى فيه . ان التمادى فى الخطأ يؤرث الحماقة . أعف عن الميت ولا تحمل السيف على هالك ، ومانفع من يقتل ميتا مرة أخرى . انى أسديك النصح الأمين ، وخاصة ان أورث النصح خيرا » .

فى قول تيريزياس حجة واحدة مشتركة بين سوفوكليس وثوكيديديس وهى أن الخطأ من شيم الناس جميعا .. وأن التمادى فى الخطأ والقسوة يسد الباب فى وجه التائبين ـ وفى جواب كريون حجة يأتى بها كليون تفصيلا فى خطبته التى يعدم بها رجال الميتيلين ، وهذه الحجة هى اتهامه كل ناصح أمين بالرشوة ، فهم لا ينطلقون عن أمانة ولا حب لوطنهم وانما هم نفوس تباع وتشترى بأجر . وسيرد ديودوتوس فى خطبته فى الدفاع عن الميتيلين على هذه الحجة كما يرد عليها تيريزياس فى تراجيدية سوفوكليس .

« كريون : يا أيها الشيخ ، أنتم جميعا كالرماة تصوبون سهامكم الى رجل مثلى ولا تعفوننى من الاستخارة وقراءة الغيب ، وأهلى قد باعونى ونبذونى منذ حين بعيد . اكسبوا ما أحببتم من أموال ، اشتروا ذهب سارد ، اشتروا ذهب الهند ، لكنكم لن تدفنوا بولينيس . حتى نسور زيوس لو أحبت أن تحمل أشلاءه الى عرش زيوس فلن أخاف هذا الرجس ولن أدفنه ، وأنا أعلم عن يقين أنه لا قوة لأحد من البشر تستطيع أن تحمل الرجس الى ملك الله . ان أدهى الرجال ياتيريزياس، يا أيها الشيخ الكبير ، يسقط سقطة مخزية اذا خطبوا خطبا بليغة يوارون بها مخزياتهم فى سبيل أجر يكسبونه .

تيريزياس : أف لكم ، أيدرى الانسان أو يفكر؟

كريون : ماذا تقول ؟ ما هذا القول المبهم ؟

تيريزياس : أليس النصح السديد أغلى من المال؟

كريون : كما أن أكبر الدواهى أن يحرم الانسان من الرأى .

تيريزياس : ذلك ما غلب على طبيعتك .

كريون : انى لا أريد أن أرد على عالم غيب بسوء .

تيريزياس : ذلك الذى تقول ، انك ترمينى فى علمى بالكذب .

كريون : أنتم جميعا يا قراء الغيب ما أنتم الا فئة تباع وتشترى •

تيريزياس : وأنتم يا معشر الطغاة تحبــون أن تكسبوا من وراء المخزيات •

كريون : ألا تعلم أنك تخاطب سيد المدينة ؟

تيريزياس : انى أعلم ذلك وأعلم انك أنقذت المدينة بفضلى •

كريون : أنت عالم فى قراءة الغيب ولكنك تحب الأذى •

تيريزياس : انك تثيرنى لأقول لك ما سكن فى نفسى •

كريون : ثر ، ولكن اياك أن تنطق بدافع الطمع فى الربح » •

(سوفوكليس ـ أنتيجونه)

فلننظر بعدئذ ما يقول ثوكيديديس : « حكمت أثينا على رجال ميتيلين بالاعدام طاعة لنصيحة كليون ، وأرسلوا سفينة بالحكم الى الجزيرة لينفذوا فيهم الحكم ، ولكن أثينا ندمت ضحى الغد على ما فعلت ورأت بشاعة اعدام البرىء والمسىء جميعا • واشتد الندم على الأثينيين فدعوا الى اجتماع عاجل ليراجعوا أنفسهم • والذى حمل الأثينيين على أن يحكموا بالاعدام على الميتيليين كان كليون بن كليانيت ، وكان أشد الناس قسوة وعنفا وكان مسموعا مطاعا من العامة فقام وقال فى الأثينيين هذا الخطاب :

كليون : كنت مؤمنا فيما رأيت منكم فى كثير من الامور • ان الديموقراطية لاتستطيع أن تحكم سواها من الأمم ، ولم أكن أشد ايمانا بهذه الفكرة الا حين رأيتكم نادمين على ما حكمتم به على الميتيليين • فأنتم فيما بينكم أيسار لا ينقم أحد على أحد سوءا، وبهذه الأخلاق تعاملون حلفاءكم ، وأنتم مخطئون ان تأثرتم بكلامهم أو أعطيتم بوازع الرحمة وتنسون أن هذه الرحمة ضعف وخطر عليكم ، وهو لن لا يكسبكم حمد هؤلاء الحلفاء ، ولا تعرفون أن حكمكم «تيرانية» أى حكم جائر مستبد تحكم به على قوم أحرار لا يطيعونكم الا كرها ولا يفكرون الافىالخروج عليكم ، ولا تحسبوا أنهم يطيعونكم لانكم ترضونهم على حساب أنفسكم ، وانما يخضعهم بأسكم رغم انوفهم ـ وشر البلية ألا نثبت على مبدأ نرتضيه وألا نوقن أن القوانين ان احترمت فى بلد رغم سوئها كانت أصلح فى الحكم من القوانين الصالحة التى لا تحترم ، وأن الجهل اذا صاحبته الحكمة كان أنفع من الذكاء الذى لا يستقر على شىء • وقد يفلح البسطاء فى سياسة مدائنهم بمالا يبلغه من كانوا أكبر منهم علما وذكاء ،والذين يحبون أن يظهروا أنهم أعلم من القوانين ويحبون أن يعلو ذكرهم فى المناقشات العامة لأنها خير مايظهرون فيها مواهبهم، وبهذه الاخلاق يضرون بأوطانهم ، والذين لايغرهم ذكاء عقولهم لايحسبون أنهم أعلى من القانون ويحسبون انهم أعجز من أن ينتقدوا الخطباء الذين يحسنون الكلام ، وهؤلاء قد يفلحون فى أكثر الأمر لأنهم يحضرون كقضاة

يقضون بالسوية لا كمصارعين يتغالبون في حلبة الكلام •• وذلك الذي ينبغي أن تفعلوه ، فاتقوا أن تزجركم مهارتكم في الكلام وصراعكم أيكم أكثر فهما وذكاء فتنصحوا أمتكم بما ليس من الصواب بشيء •

« أما أنا فمازلت عند رأيي (الذي حكمتم به على الميتيليين) وأعجب أن ينهض قوم ليستأنفوا الحكم على الميتيليين ويضيعوا علينا الوقت ، وذلك أدنى أن ينفع الآثمين ، لأن المظلوم اذا ذهب عنه الغضب نسي الظالم •• فاذا سنحت له فرصة للانتقام انتقم لا محالة •

« وأعجب أن ينهض منكم خطيب معارض يحاول أن يظهر أن جرائم الميتيليين قد تنفع وأن ما يصيبنا من مصيبة قد يصيب حلفاءنا •• فهو لا ريب معتد ببلاغته ، يحاول أن يصرع ويثبت أنه لا يعترف بما وضح للناس جميعا ، أو هو خطيب استهواه أجر المال فألف خطابا بليغا يريد أن يغويكم به •

« ومدينتنا تعود فتكافىء أى المتصارعين يغلب ، ولا تجنى المدينة من وراء هذه المصارعة الا الأخطار • وانما يقع اللوم عليكم أنتم الذين تقيمون بين الخطباء هذه المصارعة الضارة كدأبكم الذى دأبتم عليه • صرتم متفرجين يشهدون الأقوال وأصبحتم سامعين للأفعال •

« ولا تصدقون أن يحدث عمل فيما يأتي من الأيام حتى يحدثكم به خطيب بليغ ، وما كان من الأفعال التي حدثت •• لا تصدقون أعينكم التي تراها رأى العين بقدر ما تصدقون أسماعكم اذا حدثكم بها متحدث بليغ ، وأنتم خير من يخدعون أنفسهم بشكل جديد في البيان ، ولا تحبون أن تتبعوا ما تعارف عليه الناس في شيء • أنتم عبيد كل جديد ، وتحتقرون كل مألوف ، وفوق هذا جميعا ان كل امرىء فيكم يريد أن يكون خطيبا ، فان لم يستطع نصب نفسه خصما لكل خطيب • لا تريدون أن تكونوا متخلفين عنه في الرأى وتبتهجون ان أتى في كلامه بجديد ، سباقين الى فرض ما قد يقول ، أما ما قد ينتج عن قوله من عواقب فأنكم تتخلفون عن ادراكه ، كأنما تبحثون عن شيء غير الذى نعيش فيه ، ولا تقدرون الواقع حق قدره – وبعبارة موجزة أنتم أسرى لذة السمع ، وما أشبهكم بحلقات السوفسطائين منكم بأمة تتشاور في شأن سياستها » •

أصبحت الديموقراطية الأثينية مريضة بداء ترمى به أولياء الله وترمى به شعراءها وخطباءها الناصحين كلما رأوا قولا حسنا اتهموه بتهمة المال كأن الانسان أمسى أجيرا لا يفعل شيئا الا ابتغاء أجر يناله ، وكانت وصمة مستحبة عند العامة ، وكانت بيت الداء في تعلق الخاصين بالتسلط والجور وكان لابد أن يستبشع هذه التهمة تيريزياس في تراجيدية سوفوكليس كما يستبشعها ديودوتوس في تاريخ ثوكيديديس ، وهو يوليها اهتماما كبيرا لينزعها من نفوس السامعين الذين يصدقونها بغير برهان قاطع •

« ديودوتوس : لا ألوم الذين يعرضون قضية الميتيليين مرة أخرى ولا أدرى رأى الذين يلومون مراجعة الحكم مرارا في أكبر المسائل خطرا ، وأنا أعتقد أن صواب الرأى آفته علتان : العجلة في الرأى والغضب • والعجلة كثيرا ما تصحب

الجهالة وعدم التريث ، والغضب من خصال الذين لم يهذبوا والذين لا يبصرون عواقب الامور . وأعتقد أن الذي يحارب الاقوال فلا يجعلها معلمة الافعال فهو أحد رجلين : اما رجل على عقله غشاوة ، أو رجل له مأرب خاص يريد أن يبلغه . أما الذي على عقله غشاوة فهو الذي قد قد نفضلها بشيء غير الأقوال ، وأما الذي يرى أن تفضيل ما نقبل عليه من أفعال قد نفضلها بشيء غير الأقوال ، وأما الذي له من وراء ذلك مأرب خاص فهو الذي يجب أن يزين للناس فعلا مخزيا ، فاستعصت عليه البلاغة التي لا تعبر الا عن الفضيلة والجمال . فلما عجز عن البيان الجميل حمل حملة منكرة على المتكلمين والسامعين كي يرتاعوا . وأنكر المنكر أن يتهم من يلقى بيانا أنه ألقاه بثمن باع به ضميره ، وليته رمى معارضيه بالجهل . فان لم يفلحوا في اقناعكم برأيهم راحوا موصومين بالجهل ولا يرمون بجريمة بيع الذمة . واذا تقبلتم تهمة الخيانة في خطيب فستلاحقه هذه التهمة مهما أتاكم من رأى ، فان عجز عن اقناعكم جر أذيال الجهل والخيانة جميعا ، والذي يضار من وراء ذلك هو الوطن فيصرف الخوف عنه أولياؤه الصالحون . وأنفع للوطن أن يعجز أمثال كليون عن البيان واذن لوفروا على الوطن ما يزجونه فيه من أخطاء ، والرجل العادل لا يخيف معارضيه ولكن يقنع بالحق انه أقدر ، والامة الرشيدة لا تخص خير ناصحيها بالجزاء ولا تنقصهم مالهم من قدر .. فان لم يوف أحد خطبائها في الرأى فلا تعاقبه ولا تحتقره ، فان نجح خطيب فانه لن يغار منه ولا يأتي بالعجب ولا يتكلم ابتغاء مرضاة السامعين ، لا يوفقون ولا يتمنون جزاء الموفقين بالتملق والتقرب للشعب .

« ونحن نفعل نقيض ذلك فمن نرميهم بريبة بيع ذممهم ، نحسدهم على ما كسبوا بغير سنة ونلزمهم تهمة المال مهما أولونا من نصح رشيد . ونحن نحرم الوطن من أنفع ما ينقصه ، وقد استوت عندنا الحسنات والسيئات كأننا نسيء الظن بالمحسنين الذين يولوننا أحسن النصح ، وكان من نتيجة ذلك أن الذي يريد أن ينصح الامة بمنكر لابد أن يتملق الشعب ويخدعه ، والذي يأتي بأحسن النصح لابد أن يكذب حتى يثق الشعب فيه . وأمتنا هي الأمة الوحيدة بسبب هذه الآفة (آفة اتهام المحسنين) لا تستطيع أن تحسن عملا الا اذا خدعت ، ويتهم فيها أنصح الناصحين ببيع الذمة وجمع المال » .

هذه الأبيات من شعر سوفوكليس في أنيجونة ومن فقرات تاريخ ثوكيديديس اذا قورنت من قريب كشفت لضمائرنا ما غاب عن ضمير العلماء الذين قرأوا شعر سوفوكليس في الاولين والآخرين ، فهي غنية في نتائجها .. اذ تفسر تاريخ انتيجونة وتفسر القرابة بين سوفوكليس وثوكيديديس ، وتفسر أيضا أن أنتيجونة بجمال دينها وأعماق آثارها كانت صدى لأكبر فاجعة أصابت أبناء أثينا أيام سوفوكليس .. ولكي نكتب هذا الدرس فلنعد الى تمثال أنتيجونة الذي

خلفه سوفوكليس بعد هـذه الكارثة فى معـابد العدل والخير وفى ضمير العالمين •

★ ★ ★

٥ ـ الديماجوجية ـ النصر الكاذب :

لم يطلق اليونان سلطان أثينا •• وعـز عليهم أن يسلموا حريتهم لاثينا مطلة الحرية والحـق فتسومهم أثينا عسف الحكم وبطش السلطان •• وكانت هذه الحرب منذ أولها تلقى على أثينا وزر الغاشمين ، والذين كرهوا سلطانها حالفوا أعداءها وبثت الحرب أخلاق الأثم والعدوان والمكر واللوم •• وأبشع هذه الاخلاق خيانة العهد وسلب ذوى الفضل فضلهم •• وينبت فى الحياة ما صور أدب هذا العصر من صور الحاكم الذى انتظر حتى طابت لحمة طبخها غيره ثم أخذها فأكلها وحده ، والحـاكم الذى يشـبه المربية التى تشرب اللبن الـذى نبغى أن يشربـه الأطفـال • ويلخص ثوكيديديس فى صفحة ما تفشى من سـوء فى أخلاق الاغريق بفعل الحرب ••

ويمكن القول بأن هذه الحرب قد زلزلت كل شيء فى أخلاق الاغريق • انشقت المدائن فى كل مكان حزين ، بعضهـا لبعض عـدو •• فزعماء العامة يستنجـدون بالأثينيين ، وزعمـاء الأقلية يدعون اللاسيدايمونيين ، وفى أيام السلام لم يكن لأحد عذر فى ذلك ولم يكن لأحد يد فى أن يستنجد بهؤلاء ، فلما نشـبت الحرب يسرت سبل الثائرين ليجدوا حلفاء من احدى الطائفتين ليضروا بهم أعداءهم وليعينوهم حتى يكون لهم شأن • وأصاب المدن بلاء عظيم بهذه الفتن ، وهو شر لابد منه سـيصيب الانسـان ما بقيت طبيعـة الانسان وقد يكون أقل من ذلك أو أكثر، بصور تختلف باختلاف الاحداث التى تخلقها ؛ فالمدن والأفراد يتخلقون فى السلم وفى اليسر بأخلاق مرضية لأنهم بمنأى عن الغدر والاكراه ، ولكن الحرب تذهب بيسر الحياة ، والحرب معلم قاس يعلم الانسان أن يتشبه بما يلقى من مكروه • فلما استيقظت الفتن فى البلاد تعلمت كل مدينة ممن سبقها وتفننت فى الانتقام ، وغـير الانسان معنى ما ورث من أسماء ، فسمى التهور شجاعة من أجل الاخوان ، وسميت الروية والتعقل جبنا فى ثياب الحكمة ، وسميت الحكمة نفاقا وعجزا ، والتبصر فى كل أمر خيبة فى كل أمر • وسمى الاندفاع الأعمى شهامة ، وحساب كل شيء اتقاء للزلل سمى حيلة مطلية لاخفاء التقاعس،والرجل الجريء على الحق ينال الثقة ومن اعترضه كان مريبا •• وسمى مكر السوء دهاء ؛ وأدهى منه من يسيء الظن بالناس ، ومن حـذر أن يحتاج لشيء من ذلك عد خائنا لرفاقه وخائفا من أعدائه، ويحمد من كان سبـاقا فى الشر ومن يحرض الطيبين على الشر • وقرابة الاحزاب أشد قوى من أواصر الدم لان قرابة الأحزاب أكثر جرأة ولا تتحمل الأعذار ، وهذه الروابط لا تقوم على احترام القانون الموضوعى وانما غايتها الوصول الى المال والغنى من سبل يحرمها القانون • والثقـة المتبادلة بين رجال الحزب لا تقوم على رعاية عهد الله وانما تقـوم أساسا على ما يحرمه القانون من أجل الصالح العام •• وقد يقبل حزب ما يقول خصيمه قبولا طيبا لا عن نبل سـجية ولكن ليقى نفسه بطشه ان غلب • الثأر أغلى من احتمال الأذى يقسم المتصالحان قسم الصلح حين لا تكون لهما حيلة من أمرهما فاذا آنس أحدهما من نفسـه

قوة بدأ بالأذى ان رأى خصمه غافلا غير متأهب لقتال ، ويستمتع الانسان أن ينتقم ممن يأمنه ، وذلك أحب اليه من أن ينتقم صراحة • والانتقام ممن يأمنك انتقام مؤكد لا خطر فيه ومن غلب بالمكر والخداع فقد كسب سباق الدهاء •

وهانت القيم فأصبح اللئام الاشرار يدعــون ماهرين وسمى الطيبون جهلة (لانهم لا يأتون الشر) ، واستخزى الفاضلون من فضلهم ، وباهى الاشرار بشرورهم • وسبب هذه الاخلاق هو مطامع الحكم وطموحه •• ومطامع الحــكم وطموحه أوقدا نار الشقاق والخصام بين الطامعين، وسبب هذه الآفات كلها ـ الحكم وجشعه والحرص على جاهه وقد ولد ذلك روح الفتنة والصراع • فزعماء المدن يبررون جشعهم وطموحهم بأسماء خلابة • زعماء العامة يرفعون لواء الديموقراطية والمساواة وزعماء الأقلية يستمســكون بشرف الاريستوقراطية الحكيمة وكلا الحزبين يتظاهرون بخدمة الصالح العام •• وليس لهم مأرب الا أن يتخذوه مغنما يتعودون بحكمه • وأخلوا كــل سلاح فى صراعهم ، وأقدموا على كل جرأة فى سبيل الغلبة وذهبوا فى الانتقام كل مذهب •• اذا عاقبوا عاقبوا جبارين لا يتبعون القانون وصالح الوطن ، وانما يشبعون أهواءهم فيعاقبون خصومهم بقضاء طاغ أو يأخذونهم عن يد ثم يشفون غلهم فى الانتقام : ولا يخشى الله أحـد ، وأنجـح الخصمين من يبلغ مأربه بألفاظ خلابة ، والذين مكثوا بمعزل عن هــذا الصراع أوذوا لأنهم لم يشتركوا فى الصراع أو حسدا لفضلهم •

«وهذه الفتن رمت بلاد الاغريق بكل جريمة، والخلق الشريف ونبـل النفس اختفيـا وأصبحا سخرية الساخرين ، وغلب مكر السوء والقـدر بالناس على كل نفيس • لا سلطان لكلمة مهما حدث ، ولا رهبة لقسم مهما استوثقوا بالايمان ، وذهبت عن النفوس الثقة والايمان ، واتخذت كل نفس حذرها خوفا مما تلقى من السوء وعلا شأن الجاهلين فانهم خافوا من نقصهم وجهلهم وخافوا من علم خصومهم وذكائهم ، وخشوا أن يغلبوهم بالبلاغة والرأى فتســابق الجاهلون الى الفتنة واندفعوا بكل جرأة الى الصراع والذين تكبروا على ما يدبره لهم خصومهم من سوء ولم يسارعوا الى الشر اعتمادا على رأيهم وعلمهم هؤلاء أخذوا على غفلة وهلكوا •

تفشت هذه الأخلاق حين ساقت الأقدار نصرا للأثينيين كان رمية من غير رام فقد أرسلوا بعض سفنهم حول البيلوبونيز وكان القائد ديموستين حينئذ غير مكلف بعمل فسأل الأثينيين أن يشركوه فى قيادة الاسطول •• فأشركـوه قيادة أربعـين سفينة بعثوا بها الى كيركيرا بقيادة ســوفوكليس وايريميدون ، وأرسلت البيلوبونيز ستين سفينة• فلما بلغت سفن الأثينيين شواطىء البيلوبونيز عند منحنى بيلوس Pylos نصحهم ديموسين أن يتمهلوا فى بيلوس ويحصنوها لأنها موقع ممتاز يغزون منه اسبارطة فأبوا أن يسمعوا نصيحته ، وهبت عاصفة الزمتهم أن ينتظروا فيها وأن يقوموا لتحصينها ، والبيلوبونيزيون مشغولون عنها بعيد من أعيادهم ، وكان جيشهم يغزو أرض الأتيك • ولما ســمع البيلوبونيزيون ان الأثينيين نزلوا فى بيلوس عادوا أدراجهـم ، وبيلوس ميناء طبيعى امتدت أمامه جزيرة اسفاكينرية نقية العواصف، فأرسل اللاسيدايمونيون رجــالا الى الجــزيرة وجاءوا بحرا لينقذوا بيلوس ورجالهم فلم يفلحوا

وخروا ساجدين يسألون الصلح على أن يعفو الأثينيون عـــن اللاسيدايمونيين المحاصرين فى الجـزيرة ، وقبل قـواد الأثينيـين ما عرضـه اللاسـيدايمونيون من صلح لـولا أن اعتراض كليون بن كلياتيت وكان حين ذاك زعيم العامة ، يثق به العامة ثقة عمياء، فأقنع الأثينيين أن يفرضوا شروطا منها أن يسلم جنود اللاسيدايمونيين فى الجزيرة سلاحهم ويسلموا أنفسهم وأن يأتوا بهم الى أثينـا ••• وطلب من اللاسـيدايمونيين أن يعرضوا هــزيمتهم علنا فى خطــاب عــام يلقونه فى مجتمـع الأثينيين ، وحــال بينهم وبين الصلح • وكانت الجزيرة التى حوصر فيها جنود اللاسيدايمونيين ليس فيها ماء فحفروا فى الرمال ليستخرجوا ماء ملحا أجاجا وأرسـل اللاسيدايمونيون رجالا يحملون زادا من عسل ودقيق ونبيذ يجرونه فى المـاء خفية • وطـال الحصار على اللاسيدايمـونيين حتى نهض كليون فى أثينا والقى اللوم كل اللوم على قواد الاسطول وقال انهم ليسوا قوادا ولو تولى هو القيادة لجـاء بهـؤلاء المحـاصرين أسرى فى عشرين يوما • واختاره الشعب قائدا وجاء بهم أسرى فى عشرين يوما ، وفعل بالوصولية المحكمة ما عجزت عنـه حكمة علماء البحر والحرب ، وأصبح فى أعـين العامة زعيما مجيدا لم يعجزه شيء ، يلقى فى أثينا ما يشاء من نفوذ وسلطان • ولم يفجأ الأثينيون الا حين ينقض برازيداس الى أمفيـوليس وهـى مستعمرة أثينية فى شمال اليونان فيأخذها ، وجاء كليون لينقذ امفيبوليس فضاعت امفيبوليس وقتل كليون وهددت الامبراطورية الأثينية فى مقتلها لأن امفيبوليس كانت فيها مناجم الذهب والفضة وكان فيها خشب السفن ، فقطع براديداس شرايين الحياة فى عنق الحكم الأثينى ، وثوكيديديس الذى يكتب للأجيال يجعل نجاح الأثينيين فى بيلوس عبرة الأبد ويكلف اللاسيدايمونيين ببسط هذه الحكمة فى رسالة بعث بها رسلهم الى الأثينيين يسألونهم الصلح :

« ان اللاسيدايمونيين قد أوفدونا اليكم لنعمل على سلامة رجالنا المطوقين بالجزيرة ونقنعكم بما ينفعكم وما يصون كرامتنا فى هذه المحنة • ولسنا نخالف سنتنا فنبسط لكم قولا طويلا • فسنتنا أن نستغنى بالقول القليل عن الكلام الطـويل ولا نطيل ، الا ان علم الاسهاب ما يجب أن نفعـل فاستمعوا بما يصلح رأيكم فيما تتشاورون فيه ، ان بيدكم أن تجعلوا نصركم نصرا كريما فتحفظوا ما كسـبتم ثم تزيدون منه شرفا ومجـدا ، ولا تخلقوا بأخـلاق المحدثين الذين جاءتهم الحظوظ منقادة من حيث لا ينتظرون •• هؤلاء يغويهم الأمل فى أن يصيبوا مزيدا لانهـم أصـابوا مـا أصابوا رمية من غير رام ، أما من جرب دورة الحظوظ وعرف نعماءها وبأساءها فلا يغره الفـوز شيء ، وقد بلوتم ذلك مرارا كما علمنـاه نحن عـن بينـة •• ونشـــهدكم على مـا أصـابنا وكنـا أكبر الهيللينيين شــأنا ومقاما فجئنـاكم وكنا نؤمن قبل هذا اننـا أحق الناس بأن نعطى ما جئنا نسعى اليه ونسألكم اياه ، وقد بلونا هذه البأساء وعدتنا كاملة لم يصبها نقص ، ولم يلهنا الغرور بما كسبنا من نصر،ولكننا أخطأنا التقدير، والخطأ من شيم النفوس جميعا فاتقوا أن تغركم قوتكم وآمالكم والحظوظ التى واتتكم فتظنوا أن اقبال الحظوظ سيبقى دائما حليفكم ، والعاقل من يقدر تقديرا سليما أن الحظوظ دول ، ويحتمل لأواءها بقلب بصير • ان دائرة الحروب لا تدور

كما تتمنى نفوس المتحاربين ، ولكنها تدور حيث تدور المقادير •• وأقل الناس انكسارا من لا يستسلم لخدعة الأمل فى اقبالها ، وهؤلاء قد يخلدون الى السلم رغم نجاحهم ، فافعلوا ذلك أيها الأثينيون حتى لا يقول أحد بعدئذ ان أبيتم ان تستجيبوا وان أصابكم فرح أن نجاحكم اليوم كان اعتباطا ورمية منغير رام ، وبيدكم أن تتركوا للأجيال المستقبلة ذكرا ومجدا لقوتكم وحكمتكم وما يكلفكم ذلك بذلا ولا أخطارا •

« ان اللاسيدايمونيين يدعونكم الى الصلح والسلام وهم يعرضون عليكم السلم والمحالفة والصداقة والامانة فيما بيننا وبينكم ويسألونكم أن تكفوا أيديكم عن رجالهم الممنوعين فى الجزيرة، ونحن نعتقد أنه من الخير لنا ولكم ألا نذهب فى الأخطاء أحد مذهبين : فاما أن ننجو نجاءنا بما نملك من حيل أو يضيق علينا الحصار فنستسلم• انا نؤمن أن أشد العداوة قد تزول وتمحى ولا يكون ذلك بالانتقام والغلبة فى الحرب أو بسلطان الانسان ، وانما تستقر الصداقة بعد أنكر العداء اذا بنيت الصداقة على العدل والاحسان وغلب الغالب بالفضل وجازى السيئة بالعفو • من عفى عنه يلقى الفضل بالفضل ولا ينتقم من سوء أصابه ويخلد للسلام ، والناس أقرب الى أن يتخلقوا بهذه الأخلاق فى العداوات الثقال •

«وقد فطر الناس على أن يلقوا الاحسان بالاحسان وأن يردوا البغى فيركبوا له من الأخطار ما لا يتصوره العقل • فالصلح ان تصافحنا الآن خير لنا ولكم ، فاغتنموه قبل أن يحل بنا عداء لا قبل لنا به ولا مخرج لنا منه فيحرمكم مما ندعوكم اليه ، فتعالوا الى السلم وعواقب الحرب مازالت مبهمة ، وقد جاءتكم صداقتنا مع ما كسبتم من مجد ونحتمل نحن مع شىء من العار مصيبتنا بنفس راضية • ولنخلد الى السلم ولنضع ويلات الحرب عن سائر بلاد الأغريق ، وسيعدكم الاغريق أولياء هذه النعمة • انهم فى حرب لا يعلمون أينا البادى ، فان وضعت الحرب أوزارها وأنتم مازلتم أصحاب اليد العليا ردوا اليكم جميل السلام ، فان أقررتم السلام كسبتم أوثق صداقة اللاسيدايمونيين الذين جاءوكم يمدون اليكم أيديهم بالصلح وهى صداقة قائمة على الفضل والجميل ولا تقوم على الغلبة والاكراه ، وقدروا مدى الخير الذى ينبت من هذه الصداقة ، فان اجتمعت كلمتنا وكلمتكم على هذا الصلح فان سائر بلاد الاغريق، وهم أقل منا قوة ، سينزلون عملنا فى أشرف آيات وأفضل » •

ذلك ما قال اللاسيدايمونيون وظنوا ان الأثينيين سيرحبون بهذا الصلح ، فقد كانوا يتوقون الى الصلح قبل هذا لولا أن أباه اللاسيدايمونيون وظنوا أن يطلقوا سراح رجالهم • لكن الأثينيين قدروا ان الصلح بات يسيرا ينالونه متى شاءوا لأن رجال اللاسيدايمونيين أصبحوا فى قبضتهم ، واشتد غرورهم وهيج غرورهم كليون خاصة ، وكان كليون بن كلياتيت زعيما ديماجوجيا وكان مسموع الكلمة حينئذ لا يعصى العامة له قولا فحرض الأثينيين على أن يردوا على اللاسيدايمونيين فيسألوهم ان يسلموا سلاحهم ورجالهم فى الجزيرة وأن يأتوا بهم الى أثينا ثم يردوا « نيسايا وبيجاس وترويزنيا وأخايا وهى بلاد لم يأخذها اللاسيدايمونيين فى حرب وانما أخذوها فى اتفاق سابق قبله الأثينيون كرها لما حل بهم من بلاء ــ فان قبل اللاسيدايمونيون هذه الشروط استردوا رجالهم وعقدوا صلحا لأى

مــدى يتراضى عليه المتعــاقدون • فلـم يرد اللاسيدايمونيون شيئا على هذا الجـواب وسألوا الأثينيين أن يختاروا منهم مفاوضين ليتراضوا على كل أمر بعد تمحيصه ، وحينئــذ نهض كليون مغاضبا وقال انه كان يعلم ان اللاســيدايمونيين لا يضمرون عدلا ولا حقـا فهم يأبون ان يلقوا عامة الأثينيين ولا يريدون الا مفاوضة نفر قليل، فان كان لديهم قول سليم فليحضروا الجميع • فرأى اللاسيدايمونيون أن لا سبيل أن يتكلموا في جمع كيلا يسلموا جهرا بالهزيمة وان تكلموا ولم يفلحوا احتقرهم حلفاؤهم » •

وظل الأثينيون يحاصرون جزيرة «سفاكتيريه» بسفنهم وقوادهم فنهض كليون يرمي قواد الأثينيين بالعجز ويقول لو انه كان قائدا لجـاء بهـؤلاء المحاصرين في عشرين يوما ، وحينئـذ ضيـق ديموستين ورفاقه الحصار على الجـزيرة واختـار العامة زعيمهم قائدا فخرج كليون بكل ما جمع من عدة وجاء بالأسرى في عشرين يوما •

* * *

٦ ـ نفي ثوكيديديس وضياع أمفيبوليس وقتل كليون :

وثبت برازيداس من البيلوبونيز الى تراقية ، فلما بلغ اندروس خاف حـزب العمة فأغلقـوا أبوابهم فسألهم أن يستمعوا اليه وكان بليغا فأقنعهم ان اللاســيدايمونيين انما يحـاربون الأثينيــين ليحرروا بلاد الاغريق • وانه أخذ المواثيق على حكام لاسيدايمونا أن يحفظوا على الذين يحالفونه حريتهم وقوانينهم ، وأنه يلجأ للقوة والى المكر ليجعلهم حلفاء وانما يظـاهرهم بجنـوده حتى يخلصوا من ذل الاثينيين وهو لا يحابى أحدا على أحد • وسألهم ألا يعترضوه فيعترضوا حـرية الاغريق ومن أجـل وطنه سيغزو أرضهم ان اعترضوه • واقتنعت بحجته اكلنت واستاجيرا ، ثم انطلق بجيشه ومعه حلفـاء من تراقيه ليفتـح امفيبوليس وهي مستعمرة أثينا على نهر ستريمون strymon ، فلما اقترب من المدينة فجأة نزل الرعب في قلوب أهلها وأغلق الحزب الموالى لأثينا أبواب المدينة وأرسلوا يستنجدون بالقائد الأثيني الذى عقد له لواء الأسطول في تراقية ، وكان هذا القائد ثوكيديديس بن أولوروس كاتب هذا الـكتاب ، وكان في فاسـوس (وهي جـــزيرة يســكنها الباريون بينها وبين أمفيبوليس ســفر نصف نهار بالبحر) جاءوا يستغيثون به ، ولم يكد ثوكيديديس يسمع استغاثتهم حتى أبحر بسبع سفن كانت هناك ، وأراد ثوكيديديس أن يسبق فيدرك المدينة قبل أن تقع في يد برازيداس فان لم يلحقها أغاث « ايونا » ، وخاف برازيداس أن تدركـه ســفن ثوكيديديس التي أقبلت تغيث أمفيبــوليس • وقد علم أن ثوكيــديديس يملك استثمار مناجم الـذهب في تراقيه في المنطقــة المحيطة بأمفيبوليس وانه بذلك ذو شأن ونفــوذ لدى أمراء هذه المنطقة فبذل أقصى جهده ليأخذ المدينة ان استطاع قبل أن يلحـق ثوكيديديس فيغيث أغلب سكان امفيبوليس الذين كانوا يأملون أن يأتيهم بحلفاء من البحر ومما يجمع من أهل

هذه المنطقة فينقذهم ، فأرسل برازيداس مناديا ينادى فى أهل امفيبوليس ومن فيها من الأثينيين يدعوهم الى شرط معتدل « من أحب أن يمكث فى المدينة فليمكث بالعدل والمساواة ومن أراد أن يبرح المدينة فليبرحها بما يملك فى خمسة أيام». واستجاب لهفي المدينة قبل أن يصل ثوكيديديس، وأنقذ ثوكيديديس ابذما وكانت ملجأ لجأ اليه من خرجوا من امفيبوليس ، وأحب برازيداس أن يأخذها فرد مرتين ، لكن امفيبوليس سقطت فى يده وضاعت من الأثينيين .

« فلما ضاعت امفيبوليس أصاب الأثينيين فزع شديد لأن هذه المدينة كانت تمد أثينا بالخشب الذى يصنعون منه السفن وتمدهم بالمال . وهالهم أن ينفذ اللاسيدايمونيون الى قلب حلفائهم فى الشمال يثيرونهم على أثينا ، وخاصة وأن برازيداس تخلق بخلق حكيم وأذهب هيبة الأثينيين ، وطاب لكثير من المدائن أن تلقى عن عاتقها حكم الأثينيين . ومن ملك هذه المدينة فقد يصيب أثينا فى مقتل ملكها »

وارتضى الأثينيون أن يوقعوا هدنة عام واحد بينهم وبين اللاسيدايمونيين ، فلما انصرم العام أرسلوا كليون ليسترد امفيبوليس وحينئذ بدا لجنوده وللحظوظ التى صاحبته أن الحقيقة أكبر من سراب خادع . جاء كليون الى أيدنا فترقبه برازيداس على مشارف امفيبوليس يبصره ويتبعه كالنسر الذى يرتقب غفلة من فريسته ، وتهاون كليون شيئا ... مازالت خمر نجاحه في بيلوس تلعب برأسه .. ولم يذكر ثوكيديديس من الذى حرض العامة على نفيه عشرين عاما لأنه لم ينقذ امفيبوليس ... وهو حكم جائز بتحريض زعيم جائر ككليون .

لقد جاء كليون بجنوده الى مشارف امفيبوليس وانتظر هنالك حينا ثم وقع فيما كان ينتظره برازيداس . فقد سئم جنود كليون هذا الانتظار وكانوا ينتقدون قيادته ... كيف يلقى خبرة برازيداس واقدامه بالجهل والتراخى ؟ وقالوا لولا الاكراه ما خرجوا معه من ديارهم فترامت اليه أقوالهم ولم يحب أن يستبقيهم يرددون هذه الأقوال فهب وساقهم للحرب . واتبع نفس الخطة التى نجحت فى بيلوس فاعتقد انها كانت ثمرة علمه وحكمته وكان يحلم أنه لن يبرز لقتاله أحد ، ويقول انه لم يطلع الى مشارف المدينة الا ليتأمل الطبيعة وأنه لا ينتظر مددا ليؤمن ظهره ان اضطر للقتال ولكن ليطوق المدينة ويأخذها عنوة ، فمضى وأنزل جيشه فوق تل مرتفع أمام امفيبوليس وجعل ينظر الى مستنقع نهر ستريمون والى موقع المدينة من ناحية تراقية ، وحسب انه قد ينصرف متى شاء بغير قتال لأنه لم يبصر أحدا فوق أسوار المدينة ولا أحدا خارجا فى أبوابها، فأبوابها جميعا مغلقة . وبدا له أنه أخطأ حين قدم بغير ناسفات الحصون وأنه لو أنه تزود بها لأخذ المدينة وهى خلاء من المدافعين . ولم يلبث برازيداس أن رأى الأثينيين يتحركون حتى هبط من كردوليون ومشى الى امفيبوليس ولم يعترض سبيل الأثينيين ، ولم يصف جيشه وجها لوجه

أمامهم لأنه كان يخشى نقص عدته التى كانت أنقص فى رأيه من عدة الأثينيين ، ولم يكن نقصا فى عددها لأن عدد القوتين كان متكافئا وانما كانت خشيته من قيمة جنود الأثينيين ، فقوة الأثينيين كانت أثينية خالصة ومعهم صفوة جنود ليمنوس ولامبروس • واستعد لهم برازيداس بحيلة احتالها • فلو كشف أعداؤه عدد جنوده وما اضطر اليه من عتاد فى هذه الظروف لجانبه النصر اذا شهد أعداؤه قوته على حقيقتها ، فاختار خمسين ومائة من الجنود المدججين بسلاح ثقيل وجعل سائر الجيش تحت امرة كلياريديس ، وأحب أن يباغت الأثينيين فقد لا يجد سبيلا مرة أخرى لأن يلقاهم منفردين ، فدعا كل جنوده وأراد أن يشجعهم وأن يحدثهم عن خطته فقال لهم :

« يا رجال البيلوبونيز ، لا حاجة الى بيان واسهاب •• لنذكر من أى أرض قدمنا أو نتذكر أن بلادنا لم تحفظ صيتها الا بالشجاعة وعلو النفس ، أو نتذكر اننا دوريون جئنا نحارب اليونان ، وقد غلبتموهم دائما • سأبين لكم الخطة التى قدرت أن أحاربهم بها حتى لا تخاذلوا ان رأيتموهم أكثر عددا • ان أعداءنا مستهينون بقواتنا ولا يتوقعون أن يخرج أحد لقتالهم • انهم يطلعون الى الموقع ، لم يصفوا صفوفهم،يزهون بمنظرهم ويحتقروننا، والقائد الذى ينفذ الى هذه الاخطاء فى صفوف أعدائه ثم يعد قوته للقتال ، دون أن يعرضهم أو يصفهم للقاء عدوهم وجها لوجه ويتخذ مما لديه من قوة ما قد ينفع ، اذن ان ذلك هو القائد الحق• وأصلح الحيل ما تخدع بها عدوك وتنفع بها رجالك • انهم ناقصو العدة ومع ذلك تراهم معتدين مطمئنين ، وهم فيما يظهر لى تراودهم نية التراجع أكثر مما يعزمون على الصمود • فبينما هم متفككون وقبل أن يحزموا أمرهم سأنقض عليهم برجالى فى قلب جيشهم ، وانت يا كلاريدا اتبعنى بعدئذ حيث ترانى منقضا عليهم، وحين ينزل الرعب بقلوبهم خذ من معك من جنود الامفيبوليس والحلفاء وافتح أبواب المدينة مرة واحدة ، واخرج منها عدوا والحق الهيجا بأعجل ماتستطيع فذلك أدعى أن ينزل الرعب فى قلوبهم، ومايدهم الاعداء بعدئذ أشد بأسا عليهم مما يلاقون أول مرة • فكن رجلا شجاعا لانك إسبارطى • وأنتم يا رجال الحلفاء اتبعوه بشجاعة ، واعلموا ان خير صفات المقاتلين أن يرغبوا فى القتال وان يخزوا من العار وأن يطيعوا قوادهم •

« انتم اليوم بين أمرين : اما أن تتخلقوا بالنبل والشجاعة فتصونوا حريتكم ثم تدعون حلفاء اللاسيدايمونيين ، واما أن تكونوا عبيدا للأثينيين• وافعلوا المحامد احرارا بغير قيد ولا اعدام ، وان لم تفعلوا فأذنوا بذل أشق مما كنتم فيه ثم تدعون مناعين لحرية الأغريق • فلا تتخاذلوا وأنتم تبصرون على أى القيم تتصارع ، وسترون انى أستطيع أن أنصح غيرى واستطيع أن أخوض الوغى بنفسى » •

* * *

ثم حدث ما كان يتوقع برازيداس ... أمر كليون جيشه بالتراجع الى «أيون» فانقض برازيداس على الأثينيين الذين هالهم ما كانوا عليه من الفوضى والذين راعتهم جرأته ، وانقض على قلب جيشهم فهزمه وألزمه الفرار . وخرج كلياريداس كما كان أمره بجيشه من أبواب تراقيه وحمل على الأثينيين وكسر جناحهم الأيسر الذى كان موليا الى «ايون» فولى فرارا ، فلما تولى هذا الجناح حمل برازيداس على الجناح الأيمن لكنه جرح ، ولم يشعر الأثينيون انه هوى فرفعه من كان حوله من جنوده وحملوه بعيدا ، وكان جناح الأثينيين الايمن أكثر صمودا ، ولم يكن كليون ينوى الصمود منذ البداية فولى هاربا حتى قبض عليه جندى من مورسينا فقتله وولى جنده هاربين فى مسالك الجبل . وقد اجتمع حلفاء اللاسيدايمونيين يشيعون برازيداس حاملين أسلحتهم ، ونصب له أهل أمفيبوليس نصبا تذكاريا اقتطعوه له كأبطال الاساطير ومجدوه بألعاب وقرابين كل عام .

* * *

٧ ـ كارثة صقلية :

لم يلبث الأثينيون بعدما قتلوا أبرياء ميلوس كما قتل كريون أنتيجونه أن هبت عليهم رياح سموم من طمع جامح أخفى عليهم بصيرتهم فتحمسوا لغزو صقلية وهم يجهلون عنها كل شيء ، ولم يستبينوا الرشد فيما نهاهم عنه الاتقياء العادلون أمثال نيسياس التقى ، بل ركبوا أهواءهم ومطامعهم وحدثتهم أنفسهم أن يهزموا صقلية ويفتحوا ملكا فى غرب البحر الابيض مع ملكهم ... لم ينتهوا من حرب البيلوبونيز فأتواعليها بحرب جديدة وغرتهم أنفسهم فساقتهم فى سكرة الغرور الى قدر مجهول . وخبت بصائرهم يرون الصواب ثم لا يتبعونه كأنما عوقبوا باله نزع منهم بصيرتهم ورماهم بخطأ يتعثرون ويتخبطون فيه حتى يلقوا وبال أمرهم .. هزموا فى صقلية وسدت عليهم السبل . وها هم فى فاجعتهم التى يصفها ثوكيديديس ببيان التراجيدية وبكلمات من شعر سوفوكليس .. قد أمرهم أن ينسحبوا من موضعهم غداة الهزيمة التى ذهبت بسفنهم :

« بعدئذ أمر نيسياس Nicias وديموستين الجيش بالانسحاب بعد ما أعدا ما يكفى فى رأيهما لهذا العمل من شيء . وكانت المعركة البحرية لم يمض عليها الا يومان ، وكان هذا الانسحاب وبالا شديدا فى كل ناحية ، فلم يكفهم أن يفقدوا سفنهم ويمشوا على الارض بل فقدوا ما كان يدفعهم من كبار الامانى ولا يرون الا المخاطر تحيق بهم وبوطنهم .. وكان معسكرهم الذى هموا بالانسحاب منه بلاء لا تطيقه الأعين وتنفطر من حزنه الالباب (قد بقى قتلاهم فى العراء غير مدفونين) ، وكلما أبصر حى صديقا حميما ميتا ملقى بالعراء أصابه الغم والفزع جميعا ـ ومن بقى حيا من الجرحى والمرضى كان أدعى للحزن والفاجعة ممن ماتوا وكانوا أدهى بلاء ممن قتلوا .. جعلوا يبكون ويصرخون وأوقعوا الجيش فى العجز والضعف وقلة الحيلة ، كانوا ينادون كل واحد باسمه كلما أبصروا صديقا أو قريبا أو رفيقا من جيرانهم فى الخيام تعلقوا به وتبعوه حتى

يخروا ضعفا وعجزا ، واذا تركوهم أرسلوا عويلا كثيرا ودعوا الآلهة وانطلقوا باكين ، فامتلأ الجيش بكاء وأحاط به العجز من كل مكان ، فلا يستطيعون حراكا ليخلصوا من هذا البلد العدو الذى بلغوا فيه مالا يبلغه البكاء والدمع ، وفزعوا مما تبطن لهم الأيام ، وكل يلقى اللوم والعار على جاره فى كل صوب وجانب • كأنما ترى فزع الفارين من حصار مدينة كبيرة • كانوا لا يقلون عن أربعين ألفا ومن بقى منهم حمل أقل ما يستطيع من متاعه ، وحمل المشاة الفرسان على غير العادة ، •

طعامهم فوق سلاحهم ، اما لقلة الخدم واما لعدم الثقة فيهم • فقد فر بعضهم من قبل وفر الآخرون ساعة الهزيمة ، وما حملوا من غذاء لم يكن كافيا فقد نضب الغذاء فى المعسكر ـ واذا عم البلاء خف حين يكون شركة فى قوم كثيرين• لكن بلاء هذه الهزيمة لم يجد تخفيفا وخاصة اذا قارنا أوله بآخره ، فبأى زهو وغرور خرج الأثينيون والى أى درك من العار والهزيمة قد هووا ، وكان الفرق بين أول الحملة وآخرها أخطر عجز أصاب جيشا هيللينيا • انهم خرجوا ليستذلوا غيرهم وآبوا وهم يخافون أن ينزل عليهم الذل • خرجوا وهم يقيمون صلاة النصر ويغنون نشيد الفتح وآبوا وقد انقلب الشدو ندبا وبكاء • خرجوا على متن سفنهم فعادوا حفاة يمشون على الأرض ، وصار فرسان البحر مشاة وكل هذه البلايا بدت لهم هينة اذا قيست بهول البلايا المعلقة على أعناقهم •

فلما رأى نيسياس ما حل بالجيش من قنوط وما نزل به من دوائر القدر طاف على جنده ، وشد من عزمهم وشجعهم ونادى كل جماعة بصوت أعلى مما ألفوا ليزيدهم ايمانا وليجدوا فى صوته العالى الحازم ما يربط على قلوبهم :

«أيها الأثينيون ويا أيها الحلفاء : لا تيأسوا فيما حل بكم ، فقد سلمت أمم من بلايا كانت أكبر مما أصابكم ، وليس لنا أن نغلو فى لوم بعضنا بعضا فيما أصابنا وفيما لحقنا من آلام لا ينبغى أن نجزى بمثلها • وأنا لست أحسن حالا من أحد منكم • فأنتم كما ترون انى أرقد مريضا •• وكنت أعتقد أنى لا أتخلف فى السعادة عن أحد فى حياتى الخاصة والعامة •• وأنا الآن أستوى فى الخطر وأنا أشقى الاشقياء • وقد أديت للآلهة فروضا كثيرة وكنت عادلا تقيا بين الناس ، وجزاء الاتقياء العادلين أمل ويقين فيما تغدو به الايام • ونحن نفزع من مصائب جاوزت ما نستحق •• وقد يخفف الله عنا ، قد فاز أعداؤنا فوزا كافيا ، وعسى أن نكون قد أغضبنا الله بهذه الحملة فانتقم الله منا انتقاما كافيا •• قد أغار غيرنا من قبل على الناس ووقعوا فى هذا الخطأ الانسانى •• فلم تصبهم الا مصائب محتملة •• ونحن أحق بأن نأمل فى عفو الله ، ونحن أحق بلطف الله وأولى بأن يرفع عنا غضبه ، وانظروا الى أنفسكم والى عددكم وبأى نظام تمشون ، ولا ترتاعوا واعلموا أنكم حيثما كنتم فأنتم الوطن • وما من مدينة فى صقلية بقادرة على أن تصمد لكم اذا حملتم عليها ولا أن تردكم

اذا ثبتم أقدامكم ـ وبعبارة جامعة اعلموا أيها الجنود أنه لا مفر من أن تتخلقوا بالشجاعة فليس لكم هنا وطن قريب ينجيكم ان هانت عزيمتكم ، واذا نجوتم من عدوكم رأيتم ما تقرون به عينا • أيها الحلفاء وأنتم أيها الأثينيون ان نجوتم رفعتم شأن مدينتكم عاليا وانتشلتموها من الهاوية(فالمدينة برجالها وليست المدينة حصونا ولا سفنا مقفرة من أهلها) » •

ثم تخبط نيسياس بجنوده فى مجاهل صقلية ، يمشون فى ظلمات الليل ، ثم لا تلبث سهام عدوهم أن تنوشهم حتى أعياهم الاعياء والجوع والموت وضاقت بهم السبل فأسلم نيسياس نفسه• وقتل نيسياس وكان أقل أهل زمانه من الاغريق استحقاقا لهذا المصير المشئوم فقد عاش طول حياته للفضل والتقوى •• لم يصدق أهل أثينا نبأ هذه الهزيمة الساحقة •• ولما استيقنوا كرهوا خطباءهم الذين حرضوهم على هذه الحملة وكرهوا قراء الغيب الذين بشروهم بالنصر ، وحيث تولوا يطرق الغم والحزن قلوبهم ، واجتمع عليهم بعد هذه الهزيمة الفزع الاكبر ، كلما رأوا أنفسهم وقد حرموا رجالهم وأموالهم وأبناءهم • وفزعت المدينة التى فقدت جيشا كبيرا من المشاة والفرسان شبابا لا يعوض، وغرقت سفنهم وضاعت أموالهم وتوقعوا أن تأتيهم بلايا الذل من كل مكان •

* * *

انما يحمل وزر هذه النكبات فى دين ثوكيديدليس وسوفوكليس ودين الصالحين من الاثينيين خطباء المدينة ••• ان المدينة كلها وكل جيش اثمهما على الحاكمين ••• ومن أفسد نظام المدينة والجيش فوزره على الخطباء الذين أفسدوا تعليمه ، أولئك الذين لا تردد ألسنتهم الا الكذب ولا ينتهون الى عدل يفعلونه أبدا •